محاضرات في التنمية الريفية

دكتور علي فؤاد　　　　دكتور عبد المنعم شوقي

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة القاهرة الحديثة

ت ٣١٥٤٣

محاضرات فى التنمية الريفية

دكتور على فؤاد   دكتور عبد المنعم شوقى

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة القاهرة الحديثة
ت : ٣١٥٤٣

مقـــدمة

مشكلة تطوير المجتمعات الريفية مشكلة متشعبة تهم كل مهنـة ، فهى تهم المسئولين عن الزراعة والتجـارة والتصنيع والتعليم والصحة والاسكان والتعاون والشـئون الاجتماعية ... الى آخر هـذه القائمة الطويلة من الإختصاصات .

تهم هؤلاء كل من ناحيـة تخصصه ، فالمشتغلون بالزراعة والتجارة والتصنيع يهتمون بالمشكلة من جوانبها الاقتصادية ، والعاملون بالتربية والتعليم يهتمون بالاطفال والشباب فى المدارس والمعنيون بالصحة يهتمون بالعلاج والصحة البيئية والأمومة والطفولة والتغذية والثقافة الصـحية ... الخ ، والمختصون فى الاسكان يهتمون بمنزل الفلاح وتخطيط القرية، والمسئولون عن التعاون يهتمون بنشاط الفلاح ــ وخاصة صغار الملاك ــ فى الشراء والزراعة والتسويق بطريقة تعاونية ، ... الخ . أما المهتمون بالشئون الاجتماعية فلهم وضع خاص ، فهم علاوة على اهتمامهم التقليدى بالفئات المتخلفة أو التى فاتها الركب فان المختصين منهم فى تنمية المجتمع يهتمون بالمجتمع الريفى كوحدة ، اى أنهم ــ فى اهتمامهم الأخير لا يقصرون عنايتهم على جانب من جوانب الاصلاح الاقتصادى أو الاجتماعى ، ولكنهم يهتمون بالاصـــلاح عامة . فهم ينظرون للمجتمـع على أنه وحدة حيـة متشابكة معقـدة لا يمكن تقسـيمها الى تخصصات ، ويرون أن تخلف الريف مرجعه الى أن أغلب المصلحين فى بلادنا قد دابوا على معاملة الريف على أنه تخصصات زراعية وتعليمية وصحية ... الخ ولم يفطنوا الى حقيقة هامة وهى أن القرية وحدة اجتماعية مترابطة ولا يمكن معاملتها الا على هذا الأساس . قالوا أن مشاكل الريف مشاكل تعليمية أساسا فانشأوا المدارس ، ثم قالوا أنهـا صحية أساسـا فانشأوا الوحـدات الزراعية والبيطرية والتعاونية . واخيرا قام نفر من المصلحين فى جمعية الدراسات الاجتماعية بتجربة هامـة وخطيرة فى اصلاح القرية كان من نتائجها أن نشأت مصلحة جديدة فى وزارة الشئون الاجتماعية أطلق عليها اسم مصلحة الفلاح ، وقامت هذه المصلحة بانشاء المراكز الاجتماعية التى كانت بداية لتطور جذرى فى اصلاح القرية فى مصر .

اسموها « مصلحة الفلاح » ولم يطلقوا عليها اسم مصلحة الزراعة والثقافة والصحة فى الريف ولو انها كانت تقوم بكل تلك المجهودات فى وقت واحد . واسموها « مراكز اجتماعية » ولم يطلقوا عليها اسم مراكز للزراعة والثقافة والصحة فى الريف ولو أنها كانت تقوم بكل تلك المجهودات فى وقت واحد ذلك لانها كانت تهدف الى أكثر من ذلك ... فلم يكن هدفها الأول الزراعة والثقافة والصحة والا لحولت مسئوليتها الى وزارات الزراعة « والمعارف » والصحة . لقد كان هدفها الأول هو الفلاح كانسان والريف كمجتمع ، أى أن نظرتها كانت تكاملية ولم تكن جزئية . كان هدفها هو المعاونة فى التخطيط العام للقرية من جميع النواحى ، والتنسيق العام بين جميع الخدمات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية، وتدعيم جميع الخدمات سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية ، ثم اثارة الوعى الأهلى للاهتمام بجميع الخدمات سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية .

أى أن المراكز الاجتماعية — ولو انها كانت تقوم ببعض الخدمات المباشرة — الا أنها كانت تهدف أساسا الى تهيئة الجو الملائم الذى يسمح للقادة من الاهالى بالتعاون مع ممثلى الحكومة لتخطيط وتنسيق وتدعيم الخدمات الاقتصادية والاجتماعية فى القرية واستثارة المواطنين للاهتمام بمشكلات مجتمعهم والعمل على حلها .

وقامت بعد ذلك مجهودات اصلاحية مختلفة فى ريف المجتمع المصرى، كان بعضها تعليميا فى الأساس مثل مراكز التربية الأساسية وقوافل الثقافة ، وكان بعضها صحيا فى الأساس مثل مركز التنظيم والتدريب بقليوب ، وكان بعضها عام فى طبيعته مثل جمعيات الاصلاح الريفى والجمعيات التعاونية والمجالس القروية .

ونتيجة لانشاء السد العالى وتوفير ثمانية مليارات من الامتار المكعبة من مياه النيل بدأت الحكومة المصرية فى بذل الجهود لاستصلاح الأراضى فى مناطق مختلفة من الجمهورية وبدأت فى انشاء القرى وما يلزمها من الخدمات الاقتصادية والاجتماعية . فكان هذا ولا شك أكبر مشروع للتنمية الريفية قامت به الحكومة على مر التاريخ .

قامت هذه المجهودات الاصلاحية وقامت الى جانبها خدمات خاصة ضرورية كالمدارس والوحدات الصحية والوحدات الزراعية والوحدات

البيطرية والوحدات الاجتماعية ، الا اننا نخص النوع الأول من المجهودات بالعناية فى هذا الكتاب . ولا يعنى هذا أن هناك تفضيل لنوع من الخدمات على نوع آخر ، فكل نوع من الخدمات هام فى حد ذاته ولكن الأمر فيه نوع من التخصص ، فكما تصدر المؤلفات عن الخدمات الصحية أو الخدمات التعليمية فالواجب يقضى أيضا بأن تصدر مؤلفات عن الخدمات التنموية اللازمة للمجتمع .

واختصار القول أن الكتاب الذى بين أيدينا يتناول ــ فيما يتناول ــ الخدمات التنموية فى القرية فى بلادنا بالشرح والمقارنة والمناقشة بناء على فرض أساسى هام وهو أن المجتمع القروى يحتاج الى النظرة الكلية المتكاملة بالاضافة الى النظرة المتخصصة ، أى أنه يحتاج الى المختصين فى تنمية المجتمع ، كما يحتاج أيضا الى المختصين فى الزراعة والتعليم والصحة والمعمار والصناعة .

الجزء الاول

مفاهيم عامة

- تمهيد
- العلم والطريقة العلمية
- الثقــافة
- التنشئة الاجتماعية
- التفاعل الاجتماعى
- الاتصـــــال
- الجهاز الاجتماعى

تمهيـــد

للعلم لغته ، ولغة العلم تعتمد على بعض المصطلحات التى يشترك فى استخدامها الدارسين لعلم من العلوم للدلالة على معنى معين قد يضيق الى معنى محدود كمصطلح التقطير أو يتسع الى معنى أوسع كمصطلح الطرد المركزى .

وللدراسات الاجتماعية العلمية مصطلحاتها التى يستخدمها العلماء الاجتماعيين . والمصطلح العلمى قد يكون من كلمة أو كلمتين الا أن الدلالة التى يستخلصها العالم الاجتماعى منهـا دلالة قد تكون أوســع من ذلك كثيرا . والخطير فى الموضوع أن بعض هـذه المصطلحات قد يكون شائع الاستعمال فى اللغة العادية للأفراد الا أن مدلوله العلمى الذى يفهمه عالم الاجتماع مثلا يختلف اختلافا كبيرا عن المدلول اللغوى الشائع بين الأفراد ومن هنا كان أهمية توضيح بعض المصطلحات الأساسية لعلم الاجتماع.

وسنعرض فى هذا الفصـل بعض مصطلحات علم الاجتمـاع (وهى مصطلحات قد تدارسها البعض من قبـل) الا أن فى عرضها وايضاحها تحديد لفاهميها .

١ ـ العلم والطريقة العلمية

يعرف العلم عادة بأنه مجموعة متراكمة من المعارف التى تم الوصول اليها بطريقة منطقية منظمة خاصة . ومثل هذا التعريف مقبول الى درجة ما بفرض أن هذه الطريقة المنظمة المنطقية التى اتبعت فى الحصول على هذه المعارف واضحة لمن يستخدم هذا التعريف وضوحا يتفق مع المقصـود منها ولذا يجب أن نناقش هذه الطريقة العلمية مناقشة واضحة .

العلم أساسا طريقة للدراسة تستخدم فى دراسة ظواهر الكون المحيطة بالانســان . والعلم كطريقـة لدراســة الظواهر يتناول كافة الظواهر الاجتماعية والطبيعية طالمـا كانت هـذه الظواهر من النـوع المحسوس والمتكرر ، ونقصد بالظواهر المحسوسة تلك الظواهر التى يمكن لرجـل العـلم أن يخضعها للحواس المعروفة كالســمع والبصر واللمس والذوق

والشم سواء كان هذا الاخضاع مباشرا كالرؤية المباشرة بالعين المجردة أو غير مباشرة كالرؤية عن طريق أجهزة التكبير أو عن طريق التأثير غير المباشر كما يحس الكيماوى بالحامض أو القلوى عن طريق اختلاف لون الجوهر الكشاف .

وقد تمكن العلماء من استنباط الأجهزة العديدة التى تضخم حواسهم المحدودة بدرجة كبيرة كاختراع أجهزة التكبير والتقريب وغيرها من الأجهزة التى ساعدت على تقوية حواس الانسان للاحساس بظواهر كان من المتعذر عليه أن يحس بها بشكل مباشر بحواسه المجردة .

ولا يكفى أن تكون الظاهرة محسوسة حتى يمكن اخضاعها للدراسة العلمية بل يجب أن تكون الظاهرة أيضا متكررة أو من الممكن تكرارها . والطريقة العلمية كما سنبين فيما بعد ، تقتضى ملاحظة وقياسا واختبارا، والملاحظة والقياس والاختبار لا تتيسر لرجل العلم ما لم تكن الظاهرة موضوع الدراسة متكررة .

وما لم تكن الظاهرة محسوسة ومتكررة فلا يمكن لرجل العلم أن يطبق الطريقة العلمية على دراستها . فالعلم لا يمكن أن يتعرض مثلا لدراسة الله سبحانه وتعالى لأننا لا نحس بالله سبحانه وتعالى عن طريق حواسنا الخمس التى سبق الاشارة اليها . وانما يمكن للعلم بأن يدرس سلوك أفراد المجتمع الناتج عن تأثرهم بالله وبالعقائد الدينية ، فهذا السلوك محسوس ومتكرر وبذلك يمكن اخضاعه للدراسة العلمية .

الطريقة العلمية

تجمع الطريقة العلمية فى خطواتها بين التجربة والمنطق . وللطريقة العلمية مراحل متتالية نستعرضها فيما يلى :

اولا - ملاحظة الظاهرة :

غالبا ما تكون الظاهرة موجودة تحت نظر الكثيرين من الأفراد الا أن العالم المدرب هو الذى يتبين دون غيره من الأفراد وجودها ويلاحظها ويدفعه الفضول العلمي والرغبة فى المعرفة الى التساؤل عن أسبابها وكنهها ، فظاهرة شروق الشمس وغروبها كانت أمام أعين البشر منذ بدء

الخليقة ، ولكن مر الوقت الطويل قبـل أن يتوفر لها المتسائل المدقق الذى شـعر بالظاهرة شعورا دفعـه الى ملاحظتها والبحث عن أسبابها وحقيقتها .

فليست جميع الملاحظات واضحة أو وليدة الصدفة كما قد يتبادر الى الذهن ، بل أن التقدم العلمى يدفع الباحث الآن الى البحث والتنقيب عن هذه الظواهر سواء عن طريق جهود منظمة دقيقـة للكشف عنها ، أو عن طريق اختبار فروض محددة يرغب العالم فى اختبارها ، أو عن طريق استنباط نظرى من نظريات علمية قائمة .

ثانيا ـ وضع فرض لمحاولة تفسير الظاهرة موضع الدراسة :

والفرض هو محاولة أولية يضعها رجل العلم لتفسير الظاهرة . وبذلك يؤدى الفرض وظيفة هامة وهى حصر عمـل الباحث وتحـديد البيانات اللازمة للتثبت من حقيقة صواب الفرض بدلا من تشتت جهود الباحث دون ما هدف واضح .

ويشترط فيمن يضع الفرض أن يتوفر له الخبرة الكافية فى موضوع الظاهرة وما يتصل بها من موضوعات حتى يكون فرضه على درجة كبيرة من السـلامة وحتى يكون لاثبات صـحة الفرض أو لاثبـات خطئه فائدة علمية . أما تلك الفروض التى قد يضعها من ليس له هذه الخبرة الكافية فى موضوع الظاهرة والموضوعات المتصلة بها ، فقد تؤدى الى ضياع الجهد والمـال والوقت فى تقصى احتمال فاشل لا فائدة من وراء اثبات خطئه .

ويجدر بهذه المناسبة أن ننبه الى خطر يطلق عليه البعض « وقوع الباحث فى حب فرضـه » والمعنى بذلك هو أن يعجب رجل العلم بالفرض الذى يضعه بشكل يجعله يتحيز له ويحاول اثبات صحته بأى شكل من الأشكال مما يدفعه الى أن يهمل بعض الحقائق أو المعلومات التى يجـد أنها تتنافى مع فرضـه وتتعارض معه .

ثالثا ـ اختبار الفرض :

وتعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل الطريقـة العلمية . فالفرض فى حد ذاته لا يعدو أن يكون تخمينا أو فكرة طرات على ذهن رجل العلم .

ولا قيمة لفرض كتفسير للظاهرة ما لم يثبت رجل العلم صحة مثل هذا التفسير اثباتا موضوعيا مقنعا ويقيم الدليل على هذه الصحة . وتذكرنا هذه الخطوة ببعض الأمثلة العامية المعروفة مثل « الميه تكذب الغطاس » أى أن على من يدعى أنه غواص أن يثبت ذلك عمليا بالغوص فى الماء ، كذلك هناك المثل الآخر « قالوا الجمل طلع النخلة ، آدى الجمل وآدى النخلة » فمن يدعى قولا عليه اثباته وعليه البينة . وتتكون هذه المرحلة من الطريقة العلمية من عدة خطوات هى :

١ — جمع البيانات : فعلى الباحث أن يحدد نوع البيانات التى يحتاج اليها لاثبات صحة الفرض أو خطئه فى ضوء الفرض وفى حدود معرفته . ويعتمد الباحث فى جمع البيانات على المشاهدة والملاحظة الدقيقة وقد يستعين الباحث على ذلك بالأجهزة والآلات التى تعينه على أن تكون مشاهداته دقيقة وموضوعية . كما يعتمد الباحث فى جمع البيانات أحيانا على عمل التجارب التى تتيح الفرصة للحصول على ما يحتاجه من بيانات أو قد تكون البيانات مستمدة من السجلات وأبحاث الغير .

وتتوقف قيمة النتائج المتحصل عليها من البحث العلمى على دقة المشاهدات والملاحظات وعلى سلامة تسجيلها فأى اهمال أو خطأ فى جمع هذه البيانات أو فى دقة تسجيلها يؤدى الى خطأ أكبر والى انحراف فى نتائج تحليل البيانات وبالتالى فى الاستنتاجات التى قد يصل اليها الباحث .

ومن الملاحظ أن العلوم التى تنجح فى استنباط وحدات للقياس تكون ادق عادة فى جمع البيانات وتسجيلها من العلوم التى تعتمد على التسجيل الوصفى وحده .

٢ — تصنيف البيانات وتبويبها : فى أغلب الأحيان تكون البيانات المجموعة من الكثرة بحيث يتعذر فهم مغزاها أو استخلاص ما تحتويه من حقائق بمجرد النظر اليها أو استعراضها . لذلك كان من الواجب فرز وتصنيف هذه البيانات وتبويبها وعرضها عرضا منظما يعين الباحث على اكتشاف ما فيها من انتظام وترابط .

وقد يتطلب البحث والحصول على البيانات الخاصة به ملء استمارات عديدة بكل ما فيها من بيانات عن أفراد الأسرة وعددهم واعمارهم ودرجة

تعلمهم وحالتهم الصحية وعملهم وغير ذلك من البيانات . ومن البديهى أن استعراض هذه الاستمارات الواحدة بعد الأخرى لا يعين القارىء على أن يخرج منها بأية فكرة واضحة عن العلاقات أو الارتباطات بينها وبين بعضها . أما اذا فرزت هذه الاستمارات وصنفت وبوبت بياناتها فى جداول احصائية ، فان ذلك يجعل من السهل توضيح العلاقات والارتباطات بينها

٣ ـ اعادة التأكد من التسجيل والتصنيف والتبويب : ونعنى بهذه الخطوة أن يتـأكد الباحث من أنه عنـد تناول الاستمارات فى خطـوات التسجيل والتصنيف والتبويب لم يقع فى أى أخطـاء وخاصة الأخطاء الكتابية عنـد نقل الارقام والبيانات من اسـتمارة أو كشف الى آخر . والمقصود بذلك هو بطبيعة الحال تدارك اى خطأ قبل الانتقال الى المرحلة التالية .

رابعا ـ الاستنتاج والتعميم :

وفى هـذه المرحلة تستخلص النتائج من تحليـل البيانات السابقة واظهارها عما اذا كانت هذه النتائج تؤيد الفرض الموضوع لتفسير الظاهرة أو تثبت عكسه أو تتطلب تعديل ذلك الفرض . ففى هذه الخطوة يصل الباحث الى خلاصة دراساته للبيانات المبوبة بالطرق الاحصائية السليمة وغيرها من الطرق بقصد الوصول الى نتائج سليمة .

وقد يتطلب الأمر قبل تعميم الاستنتاج أن تدرس جميـع الظواهر المماثلة للظاهرة موضوع الدراسة ، وكذلك تحديد الظروف التى يمكن التعميم أو وضع القانون العلمى فى حدودها على انه اذا تبين انه لا يمكن تعمم الاستنتاج على ظواهر أخرى يكفى اعتبار الاستنتاج مجرد تفسير للحالات التى جرت عليها الدراسة العلمية .

٢ ـ الثقـافة

منذ أن وجد الانسان على الأرض وهو يعيش مع غـيره من الأفراد ومن الكائنات الحية حيوانية ونباتية . ويتعامل الانسان أثناء حياته هذه، مع ما حوله فى البيئة التى يعيش فيها متأثرا بها ومؤثرا فيها . فالانسان يتأثر بالبيئة الجغرافية وما فيها من مياه وجبال وسهول ، ويتأثر بالبيئة البيولوجية وما فيهـا من حيوانات ونباتات ، ويتأثر بالبيئة الطبيعيـة

وما فيها من هواء وامطـار وبرق ورعد وبرد وحر ... وهكذا نرى ان الانسان يعيش متأثرا بهذه الأشياء التى تحيط به ، كما تتأثر حياته بمدى امكانه من الاستفادة منها وبامكانه من وقاية نفسه من اضرارها اما باخضاعها لسيطرته أو بالعمل على التكيف معها بشكل من الأشكال .

ولا تقف حاجة الانسان عند حد التكيف مع البيئة المحيطة به فحسب ، بل تتطلب كذلك ان ينظم علاقاته مع غيره من افراد المجتمع الذى يعيش فيه ، ومع غيره من المجتمعات التى يتصل بها أو يتعامل معها .

واذا كان الانسان يعيش فى مجتمعات ، فليس هو الكائن الحيوانى الوحيد الذى يعيش هذا النمط من المعيشة . فهناك فى مختلف رتب وأجناس المملكة الحيوانية كائنات تعيش فى مجتمعات ، أقربها الى الاذهان دائما النحل والنمل والقردة والطيور .

والانسان كذلك يشترك مع غيره من الحيوانات الأخرى فى حاجته الى اشباع حاجات بيولوجية أساسية لا يستطيع ان يعيش دون اشباعها وهى الحاجة الى الأكل والشرب والتنفس والاخراج والمأوى أو النوم . صحيح أن حاجات الانسان قد تزداد عن ذلك كثيرا الا أنها لا يمكن أن تقل عن ذلك بأى حال ، شأنه فى هذا الحد الادنى من الحاجات شأن أى كائن حيوانى آخر . وقد نضيف حاجة أخرى مشتركة لجميع الكائنات الحيوانية هى الحاجة الى التكاثر والتناسل لحفظ النوع .

ولا شك أن اشباع هذه الحاجات سواء عند الانسان أو عند غيره من الكائنات الحيوانية الاخرى هى من البيئة المحيطة بها . فالبيئة المحيطة هى مصدر الأكل وهى مصدر الشرب بل هى مصدر الهواء اللازم للتنفس كما أن هذه الكائنات تخرج فى هذه البيئة وتجد مأواها البيئة .

فهل المجتمع الانسانى اذن ، هو احدى المجتمعات الحيوانية شأنه شأنها وما يتصل بها من حقائق ومعلومات يتصل به أيضا ؟

الواقع أن المجتمع الانسانى اذا كان يتفق مع غيره من الحيوانات فيما سلف من أشياء فانه مختلف اختلافا بينا عن هذه المجتمعات الحيوانية . وتبدأ هذه الاختلافات من ملاحظة أساسية هامة . فنحن اذا لاحظنا

مجتمع النحل لوجدناه يعيش بنفس الاسلوب ويشبع حاجاته بنفس الطريقة وتقوم العلاقات بين أفراده بنفس الطابع الذى يقوم فى اى مجتمع نحل آخر مهما اختلف المكان الذى تتواجد فيه هذه المجتمعات من النحل بل ومهما اختلف الوقت والزمن الذى تعيش فيه . فالعلاقة بين النحلة الشغالة والنحلة الملكة والنحلة الذكر علاقة واضحة لا تتغير من مجتمع نحل الى مجتمع نحل آخر ، وطريقة وأسلوب المعيشة للنحل واضحة لا تتغير من خلية الى أخرى .

وبعكس ذلك نجد أن المجتمع الانسانى يختلف فى أسلوب معيشته وطريقتها من مجتمع الى مجتمع بل وفى المجتمع الواحد من زمن الى آخر. فلكل مجتمع لغة خاصة به تختلف عن لغة المجتمعات الأخرى ، ولكل مجتمع طريقته فى اعداد الطعام وتنظيم الحكم وتنظيم الزواج والأسرة ، ولكل مجتمع تقاليده الخاصة وعاداته السلوكية المميزة ، وبالجملة ، فان لكل مجتمع طريقة مختلفة تميز حياة كل مجتمع انسانى عن غيره من المجتمعات . صحيح أن هناك اختلافات أحيانا بين أفراد المجتمعات فى لون البشرة أو ملامح الوجه أو حجم البنية ، الا أن هناك كذلك مجتمعات يتشابه أفرادها تشابها كاملا فى هذه النواحى ومع ذلك فلكل مجتمع منها طابع مميز ولغة مميزة وتقاليد مميزة بل ولغة مميزة .

وهذا الفارق الواضح الملحوظ بين المجتمعات الانسانية وغيرها من المجتمعات الحيوانية مرجعها الى ما يتميز به المجتمع الانسانى من وجود ظاهرة اجتماعية خاصة به هى ظاهرة الثقافة أو الحضاره .

والثقافة هى فى ابسط تعاريفها طريقة وأسلوب المعيشة فى مجتمع من المجتمعات . فلكل مجتمع من المجتمعات طريقته الخاصة فى الحياة بما تشتمل عليه هذه الطريقة من أدوات وطرق عمل الأشياء والانماط السلوكية والاستجابات للمؤثرات المختلفة والقيم والمعايير التى ترعى هذه الانماط وتشتمل هذه الطريقة كذلك على التنظيمات الاجتماعية الخاصة بها مما يميز كل مجتمع عن غيره من المجتمعات .

واذا كانت معيشة المجتمعات الحيوانية غير الانسانية تتحدد طبقا لغرائزها الموروثة بدليل أن مجتمع النحل مثلا يتبع نفس أسلوب المعيشة الذى يتبعه أى مجتمع نحل مهما اختلف المكان والزمان . فان المجتمعات الانسانية يتحدد أسلوب المعيشة فيها طبقا للثقافة السائدة فى هذه المجتمعات .

ولتصوير نشوء الثقافة فى مجتمــع من المجتمعات نعرض المثـال الفرضى التالى :

اذا فرضنا وجود انسان وحده فى الحياة فمثل هذا الكائن العضوى لابد وأن يتوفر له عدة احتياجات بيولوجية أساسية حتى يمكنه الحياة والبقاء ، هذه الحاجات البيولوجية الاساسيةهى الغذاء والشربوالتنفس والاخراج والمأوى الذى يحميه من تقلبـات الطبيعة . ولا شك أن هـذا الانسان الأول كان سيحصل على حاجاته من البيئة المحيطة به فمنهـا يحصـل على الغذاء والمـاء كما يتنفس من الهواء المحيط به ويخرج فى البيئة ويبحث فيها عن كهف أو شجرة يستظل بها .

ومن محاولات هذا الانسان الفرضى المنفرد يتكشف له ماء عذب وماء مالح ونباتات حلوة واخرى مرة فيكتسب خبرة عن هذه البيئة المحيطة ويصبح تعامله المباشر مع البيئة يوجهه ويحدده حاجاته التى اكتسبها بنفسه .

فاذا ما تصورنا اجتماع هؤلاء الأفراد ذوى الخبرة للمعيشـة معـا فلا يمكن بطبيعة الحال أن يشبع كل منهم حاجاته (ويزيد عليها هنا الحاجة الى التكاثر) من البيئة المحيطة بهم بل عليهم أن ينظموا علاقتهم ببعضهم وعلاقاتهم بالبيئة المحيطة بهم فهم يتفقون على طريقة الصيد مثلا أو طريقة توزيع انصبتهم من الصيد ويتفقون على الأدوات التى يستعملونها وتظهر بينهم بناء على هذه الاتفاقيات قيم تحيـط باتفاقاتهم فينعت من يتبـع هذه الاتفاقية بالامانة والولاء ومن يخالفها بالخيانة والخطأ .

ويتفقون كذلك على اللغة التى يتفاهمون بها مع بعضهم . وهكذا نرى أن الاتفاقية تشتمل على اللغات وطرق عمـل الأشياء والأدوات والقيم والمعايير السلوكية ، هذه الاتفاقية هى ما نعنيه بالثقافة .

فالثقافة اذن يمكن تلخيص خصائصها فى النواحى التالية :

١ ـ انها مكتسبة وقد صنعها الانسان بنفسه واصبح يعيش وفقا لها . فالثقافة بالرغم من انها نتاج تجمـع الخبرات الانسانية ، فانهـا المحددة لانماط الحياة الاجتماعية فى مجتمع من المجتمعات فهى تحـدد اللغة أو اللغات السائدة ، كما تحدد الطرق المختلفة التى يتبعها الأفراد لمقابلة المواقف الاجتماعية المختلفة أو يستجيبون لها كما تشـمل الثقافة

على الدراية بانتاج واستعمال الآلات المختلفة وعلى القيم والمعايير والتقاليد التى تحيط بكل ذلك .

٢ ـ تتفق الثقافات جميعا فى أنها تعمل على تنظيم الحياة الاجتماعية بشكل يوفر لأفراد المجتمع ما أمكن حاجاتهم المعيشية وطرق الحصول عليها . الا أنها تختلف عن بعضها فى الوسائل المؤدية الى اشباع هذه الحاجات وفى شكل التنظيم نفسه فكل ثقافة مثلا لا بد وأن تعمل على توفير الأكل وطريقة الحصول عليه لأفراد المجتمع الا أن ثقافة مثلا تعتمد على الزراعة وغيرها تعتمد على استيراد المأكولات ، كما أن هناك طريقة معينة لاعداد الطعام فى كل ثقافة تكاد تختلف عن طرق اعداده فى غيرها من الثقافات ، كل ثقافة تعمل على تنظيم الزواج واشباع حاجة المجتمع الى التكاثر ، الا أن طريقة الزواج وشكل الأسرة تختلف بين الثقافات وبعضها .

٣ ـ الثقافة دائمة التغيير بما تضيفه اليها الأجيال الجديدة من خبرات وادوات وقيم وأنماط سلوكية وألفاظ لغوية ، وكذلك بما سينتج عن اسقاط الأجيال الجديدة لبعض الخبرات القديمة التى لم تعد تتلائم مع ظروف الحياة الجديدة ، ويختلف سرعة تغيير الثقافات فهناك ثقافات سريعة التغيير مثل الحال فى المدن والمجتمعات الاكثر اتصالا بغيرها من الثقافات وتعرف مثل هذه الثقافات سريعة التغيير باسم الثقافات المتحررة ، كما أن هناك ثقافات بطيئة التغيير وتعرف باسم الثقافات المقدسة وهى مثل ثقافات المجتمعات المنعزلة .

٤ ـ تعتبر اللغة أو الاتصال الرمزى أساس هام من مكونات أى ثقافة ، كما انها عامل هام فى الوقت نفسه على تراكم التراث الثقافى وزيادته فيستوعب كل جيل ما يوجد من ثقافته ويضيف اليها ، ثم يأتى جيل آخر فيستوعب مما يجد من حضارة ويضيف اليها بدوره وهكذا ينتقل الطفل عن طريق اكتساب الثقافة من مجرد كائن عضوى الى كائن اجتماعى يتصل بغيره ويعبر عن نفسه ، ويفكر فى أشياء معينة ، وله آمال خاصة ، وقيم فى حياته ، وأمور تضحكه وأخرى تحزنه ، وأوضاع يرضى عنها ، وأوضاع يسخط عليها بل انه ككائن اجتماعى بفضل اكتسابه للثقافة يرى أن اشباع حاجاته البيولوجية لابد أن يتم بطريقة معينة . فلا يعود الأكل مجرد طعام يكفيه مؤونة الجوع بل أنه يفضل أصنافا من الأكل ، ويشمئز لمجرد رؤيته لأصناف أخرى ، ويؤثر أن تطهى هذه الأصناف بطريقة معلومة ، كما يصطلح على توزيع أصناف الأكل على أوقات مختلفة . هذا فضلا عن انه ينظم أدوات الاكل وجو الطعام المادى والاجتماعى والجمالى

كل هذه أمور تؤثر فيها نوع الثقافة المتصلة بالطعام ، ولم يعد الأمر مجرد سد لحاجة بيولوجية ، وانما ترتبط هذه الحاجة البيولوجية بمقتضيات التراث الثقافى .

٥ ـ تتأثر كل ثقافة فى تكوينها بالخبرات التى يمر فيها أفراد هذا المجتمع وبالمواقف المختلفة التى يواجهونها فالمجتمعات التى تحيط بها مجتمعات معادية تكون ثقافة ذات طابع تختلف عن طابع ثقافة مجتمع آخر يشعر بالطمأنينة والسلام . بل وتتأثر ثقافة المجتمع كذلك بظروف البيئة الجغرافية والطبيعية والبيولوجية ، فالجبال والسهول أو الجو البارد والجو الحار أو المعتدل والمناطق الخصبة فى نباتاتها أو المجدبة كلها عوامل وعناصر تؤثر تأثيرا بالغا على تشكيل الثقافة السائدة فى البيئة التى تحاول أن تتلائم وتتكيف مع الظروف الخاصة المحيطة بالمجتمع .

٣ ـ التنشئة الاجتماعية

عملية التنشئة الاجتماعية هى العملية التى يتم بواسطتها اكتساب الفرد الجديد فى المجتمع لثقافة المجتمع الذى يعيش فيه ، أى عملية نقل ثقافة المجتمع وطرق المعيشة فيه وأسلوب التعامل واللغة والعادات والقيم الى أفراد المجتمع فى شخصيتهم ، وبها يتحول الطفل الجديد فى المجتمع من مجرد كائن عضوى الى كائن اجتماعى .

فاذا فرضنا أننا أخذنا طفلا حديث الولادة من الهند ليعيش فى أسرة فى اليابان وينمو بها ، فاننا بعد عشرين سنة نجده يشبه فى شكله ولون شعره وغير ذلك من الصفات العضوية آباء من الهنود (بناء على الوراثة) أما ما عدا ذلك من صفات اجتماعية فهى جميعا صفات تتفق مع الثقافة اليابانية ويعرف دينها ويؤمن بقيمها وعاداتها وتقاليدها وطرقها فى عمل الأشياء ويكتسب مهارات اليابانيين فى استخدام الأدوات السائدة فيها . هذا الاكتساب للصفات الاجتماعية والثقافة السائدة هى العملية التى نشير اليها باسم عملية التنشئة الاجتماعية .

٤ ـ التفاعل الاجتماعى

اذا حدث أن وضعت كتابا على المنضدة ، فأطراف العملية التى حدثت هى أنا والكتاب والمنضدة ويلاحظ انه لم يحدث اى تغيير فى أى نوع من هذه الاطراف عقب هذه العملية ، مثل هذا الذى حدث يطلق عليه اسم اجراء .

اما اذا حدث أن القى (ا) كتابا فى وجه (ب) فان (ب) سيرد عليه بالسباب او بالعتاب ويتبادل (ا ، ب) النقاش أو العراك الى ان تقف العملية وتنتهى والملاحظ أن (ا ، ب) عند انتهاء هذه العملية سيختلفان فى علاقاتهما وخبراتهما عما كانا عليه قبل بدء العملية ، هذه العمليةيطلق عليها اسم التفاعل الاجتماعى .

ونحن نعلم من دراستنا السابقة فى علم الكيمياء بأن التفاعلالكيميائى هو الذى يؤدى الى أن تكون المادة الناتجة عن التفاعل مخالفة فى صفاتها للعناصر الداخلة فيه . وهذا الاصطلاح هو الذى استعير للعلوم الاجتماعية بحيث يشير التفاعل الاجتماعى الى سلسلة من المؤثرات والاستجابات ينتج عنها أن أطراف التفاعل عند نهايته تكون مغايرة لما كانت عليه عند بدايته .

ومن خبراتنا فى الحياة العامة نرى أن بعض أنواع الارشاد والتوجيه لا تؤثر فى الافراد لانها على مستوى الاجراء بينما هناك من برامج الارشاد ما يؤثر فى الأفراد ويغير من تفكيرهم لانه قام على مستوى التفاعل الاجتماعى . والواقع أن أى برنامج على مستوى التفاعل الاجتماعى لايؤثر فى الأفراد فحسب بل يؤثر كذلك فى القائم بالبرنامج نفسه حيث يعدل من طريقته ويحسن من أسلوبه تبعا للاستجابات التى يستجيب بها الأفراد لمؤثراته .

٥ ـ الاتصال

يعتبر الاتصال المادة الماسكة لأفراد المجتمع وجماعاته ، فبدون اتصال بين أفراد المجتمع يصبحون حشدا لا رابطة ولا علاقات اجتماعية بينهم ، فالاتصال هو شريان الحياة الاجتماعية ، والاتصال بالنسبةللحياة الاجتماعية شأن الدم بالنسبة لجسم الانسان . فجسم الاسان مجموعة من الخلايا العضوية التى يبقى حياتها سريان الدم بين اجزاء الجسم وبعضه فاذا ما توقف الدم فى جسم الانسان فقد الجسم حياته وتحللت وتفككت أجزاؤه كذلك المجتمع اذا توقف الاتصال بين أفراده وجماعاته ، تفكك المجتمع وتحلل . فالاتصال كما ذكرنا هو المادة الماسكة لأفراد المجتمع وجماعاته .

ويقصد بالاتصال توصيل فكرة أو معنى أو حالة عاطفية من شخص

الى شخص أو من شخص الى جماعة أو من جماعة الى شخص أو من جماعة الى جماعة . فاذا ما قام شخص بالاتصال بآخر فانه يحاول بذلك أن يقيم بينه وبين هذا الشخص عملية مشاركة اى أنه يحاول أن يشترك معه فى رأى او فى معلومات أو فى فكرة أو اتجاه . والواقع ان الاتصال يعتبر أساس جميع الظواهر والعمليات والتفاعلات الاجتماعية .

كيف يتم الاتصال :

لكى يتم الاتصال يجب أن تتوفر على الأقل ثلاثة عناصر وهى :

١ ـ المصدر أو المرسل .

٢ ـ الرسالة المطلوب توصيلها .

٣ ـ المستقبل أو المرسل اليه .

والمصدر قد يكون شخصا (يتكلم أو يكتب أو يرسم او يأتى بحركات بدنية ذات معنى) ، أو قد يكون منظمة كدور الصحف أو النشر أو محطة تليفزيون أو اذاعة أو استديو سينمائى . أما الرسالة فقد تكون فى شكل كتابة على الورق أو أمواج صوتية فى الهواء أو اى اشارة اخرى يمكن ان تفسر بمعنى معين . أما المرسل الية أو المستقبل فقد يكون شخصا يستمع أو يرقب أو يقرا او قد يكون عضوا فى جماعة للمناقشة أو مستمعا لمحاضرة أو متفرجا على مباراة لكرة القدم أو حشد من الناس .

وعندما يحاول المصدر أن يحدث اتصالا ، فانه يبدأ فى أول الأمر بصياغة رسالته (أى تحويلها الى رموز أو شفرة) بمعنى أنه يحول المعلومات أو الأحاسيس التى يرغب فى نقلها للغير بطريقة يمكن انتقالها. فالصور التى تخايلنا أو تجول فى أذهاننا لا يمكن التعبير عنها أو نقلها الا اذا تحولت الى رموز كلامية مثلا ؛ ففى هذه الحالة يمكن نقلها بسهولة ولكنها لا تذهب بعيدا الا اذا نقلت عن طريق الراديو ـ أما اذا صيغت الصور فى شكل كتابة فانه يمكن ارسالها الى مكان أبعد وابقائها لأزمنة أطول .

وطريقة الاتصال الانسانى تشــبه تقريبا دائرة الاتصــال فى الراديو أو التليفون ويمكن وصفها بالشكل الآتى :

خطوات الاتصال الانسانى

المرسل	الرسالة		التفسير	المرسل اليه
المصدر	الصياغة اوالتحول لرموز	الاشارة	حل الرموز	المستقبل

اذا نظرنا الى الشكل السابق يمكن بسهولة معرفة كيف يتم الاتصال فالمصدر أو المرسل هو شخص لديه صورة محددة لفكرة أو معلومات ، ويقوم بصياغتها عن طريق لغة مثلا ، واللغــة رموز تترجم اليها هــذه الصورة ثم يمكنه بعد ذلك نقل الرسالة المصاغة مستعملا فى ذلك الاشارة المناسبة كالكلام أو الكتابة أو الرسم أو الحركة البدنية وحينما تصــل الاشارة الى الشخص المرسل اليه أو المستقبل يقوم بحل هذه الرموز وبذلك تعود الى ذهنه الصورة التى أرسلت وهكذا تكون قد تمت عملية الاتصال .

فمثلا اذا رأى شخص كلبا يعض انسان فان ما رآه هو حيوان نعرف جميعا شكله يقوم بحركة من فمه فى جسد انسان . هذه الصورة التى رآها الشخص بعينه وانطبعت فى ذهنه . اذا أراد توصيلها فانه بصفته المرسل أو المصدر يتولى تحويل الصورة التى فى ذهنه الى رموز فالحيوان الذى رآه رمز له بكلمة .(كلب) وقد يرمز فى مجتمع آخر لنفس هــذا الحيوان بكلمة (   ) كما رمز للحركة التى قام بها هذا الحيوان بكلمة (عض) وللكائن الذى عضه هذا الحيوان بكلمة (انسان) — وبذلك تكون الصورة التى رآها هذا الشخص الحقيقية قد تحولت الى شفرة أو رموز هى (كلب عض انسانا) .

هذه هى الرسالة المصاغة للصورة التى لدى المصدر والتى يرغب فى توصيلها الى صديق له . والذى يحدث بعد ذلك هو أن المصدر يعطى الاشارة بهذه الرسالة المصاغة الى المستقبل . وقد تكون الرسالة صوتية أو مكتوبة أو بحركات من اليدين والوجه أو بموجات لاسلكية أو بأى اشارة أخرى مناسبة .

وحينما يتلقى المرسل اليه او المستقبل هذه الرسالة المصاغة فان اول ما يفعله هو أن يحاول حل رموزها فتتحول كلمة (كلب) مرة أخرى الى صورة هذا الحيوان وكلمة (عض) الى الحركة التى أتى بها هذا الحيوان وكلمة (انسان) الى صورة الكائن الانسانى وبذلك تتحول هذه الرسالة الى صورة فى ذهن المستقبل أو المرسل اليه وتتم بذلك عملية الاتصال .

والملاحظ طبعا انه لو كانت الصورة التى تكونت فى ذهن المستقبل او المرسل اليه مطابقة للصورة التى كانت فى ذهن المصدر أو المرسل فان الاتصال يكون قد تم بنجاح . وعلى هذا فقد يتخيل المرسل اليه أو المستقبل أن الكلب المذكور كبير الحجم اسود اللون أشعث الشعر بينما كان الكلب فى الأصل صغيرا نحيلا أملس الا أن الرسالة حينما صيغت كانت ناقصة وغير معبرة تماما عن الصورة فى مخيلة المرسل أو المصدر مما أدى الى هذا التباين بين الصورة الأصلية لدى المصدر والصورة النهائية التى تكونت لدى المستقبل او المرسل اليه .

ولا شك أن نجاح عملية الاتصال أو فشلها يتوقف على درجة صلاحية كل خطوة من الخطوات التى بيناها فى الشكل السابق بمعنى أن أى اهتزاز أو عدم وضوح فى الصورة التى لدى المصدر او اى خطأ او عدم دقة اوعدم اكتمال فى صياغة الرسالة المعبرة عن هذه الصورة او اى خلل فى الاشارة التى تنقل بها الصورة او اى خطأ فى حل رموز الرسالة كل هذا أو احداه سيؤدى الى أن تكون الصورة فى مرحلتها النهائية لدى المستقبل او المرسل اليه مخالفة للصورة التى لدى المصدر المرسل .

ومن أسس الاتصال السليم نعرض للآتى :

(ا) يجب أن تكون لغة الاتصال مفهومة لجمهور المستمعين . فاستعمال اللغة الفصحى مثلا مع جماعة الفلاحين قد يجد استجابة للصوت وموسيقيته وليس لمعانيه بينما الحديث العادى الذى يستخدم لغتهم الدارجة يصل بالمعانى اليهم .

(ب) لابد أن ينبنى الاتصال على الخبرة السابقة للمرسل اليه أو المستقبل فالحديث عن التركيب الكيماوى للقنبلة الذرية أو الهيدروجينية لا يفهمه سوى الذين سبق لهم معرفة الكيمياء والطبيعة وتركيب الذرة .

ومن الأمثلة المعبرة عن ذلك خطاب الرئيس جمال عبد الناصر عن

تاميم شركة قناة السويس . فى مثل هذا المثـال ، لو أن الرئيس قصر حديثه على اعلان قرار التأميم ، لمـا كان عدد من وصـل اليهم النبـأ بوضوح ذلك العدد الكبير من أبناء الأمة العربية الا ان الذى حـدث أن الرئيس قد تدرج بخبرات المستمعين منذ اللحظة الأولى التى ناقش فيها فردينان دى ليسبس سعيدا بشأن انشاء قناة السويس ، ثم تضحيات الشعب فى حفرها ، ثم ما تبع ذلك من سوء استغلال الشركة لمسئولياتها نحو الأمة وعدم ولائها لها . الى ان انتهى الرئيس الى اعلان قرار التأميم بعد أن بنى الخبرة السـابقة للمستمع بحيث امكن توصيل قرار التـأميم اليه توصيلا فعالا .

(جـ) يحسـن الاستعانة بالرسالة السمعية والبصرية فى تبسـيط الصورة وتيسير توصيل المعلومات .

(د) ان العواطف المتقدة تحول دون التوصيل الفعال بين المرسـل والمرسل اليهم فالحب الشديد والكراهية الشديدة والتعصب القوى كلها تحول دون التوصيل الفعال .

٦ ـ الجهاز الاجتماعى

حينما نتكلم عن الجهاز الهضمى مثلا او الجهـاز التنفسى فنحن فى الواقع نتصور ناحيتين هامتين عن هذا الجهاز أولهما بنائه أو تركيبـه والثانى حركته أو وظيفته وبالمثل فالجهاز الاجتماعى يشتمل على كل من البناء أو التركيب والحركة أو الوظيفة .

والجهاز الاجتماعى يشير الى أى تركيب اجتماعى له وظيفة ، فالأسرة مثلا جهاز اجتماعى ، وجماعة الاصدقاء جهاز اجتماعى كذلك ، والمصنع جهاز اجتماعى .ويقول « تشابل » بأنها تنظيمات اجتماعية تتكون من أفراد يتفاعلون مع أعضاء التنظيم اكثر من تفاعلهم مع غير الاعضاء أثناء عمل الجهاز لتحقيق اهدافه .

ويقول « سوركن » عنه ـ « انه تفاعل ذو معنى بين اثنين او أكثر من الأفراد الآدميين حيث يؤثر أحد الطرفين بشكل واضح على السـلوك الظاهر أو الحالة العقلية للآخر » .

وهكذا نرى أن اصطلاح الجهاز الاجتماعى يغطى غالبية التنظيمات أو التشكيلات الاجتماعية سواء منها الرسمية أو غير الرسمية .

عناصر الجهاز الاجتماعى :

١ ـ الدور :

والدور هو ما يتوقعه أفراد الجهاز من عضو منهم فى موقف معين . فدور الأب فى الأسرة مثلا هو ما يتوقعه أفراد الجهاز منه فى الموقف المعين. فمثلا نتوقع من الأب ان يرعى أسرته وان يخلص لها وأن ينفق عليها وان يعمل على حمايتها ... الخ ودور اللص فى عصابة اللصوص يختلف عن ذلك فهم يتوقعون منه تصرفات خاصة فى مواقف معينة هى التى تحدد دوره .

ونحن نقيس مثالية الفرد أو انحرافه بالنسبة لمقارنتنا بين تصرفاته الفعلية فى المواقف المختلفة وبين الدور المتوقع منه من الجماعة وكلما زاد الفرق والانحراف بين الدور الفعلى والدوز المثالى كلما زاد نقد المجتمع أو الجماعة للعضو .

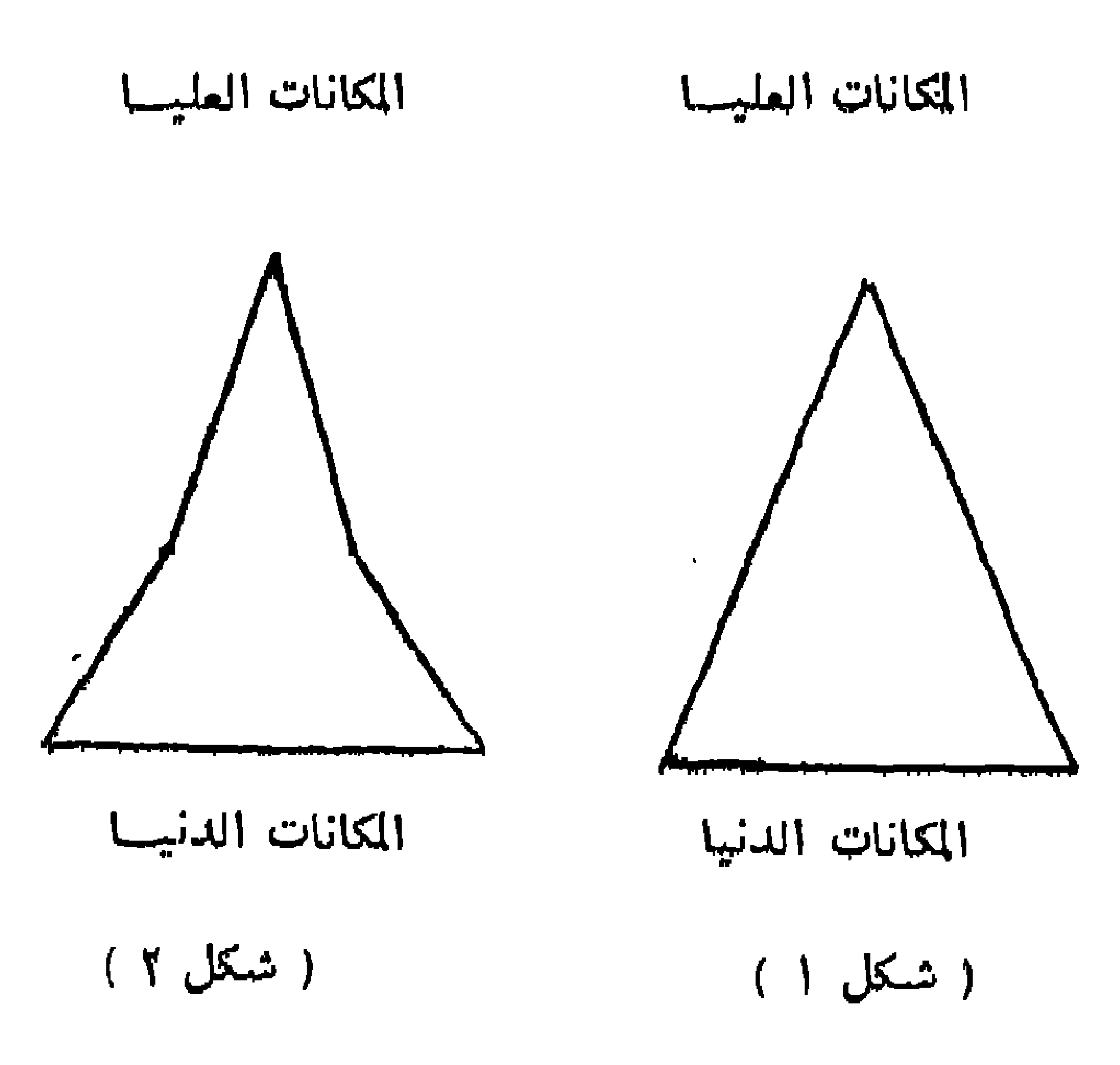
وللمرء عادة أكثر من دور حتى فى الجهاز الواحد فهو فى الأسرة قد يكون ابنا واخا وعما ولكل من هذه الأدوار توقعات تخالف التوقعات المنتظرة من أدواره الأخرى كما أن لكل منا أدوار لا تقل عن عدد التنظيمات أو التشكيلات الرسمية أو غير الرسمية التى ينتمى اليها .

٢ ـ المكانة الاجتماعية :

هى المرتبة التى يضع أفراد الجماعة فردا منهم فيها بناء على السمات والصفات التى لهذا الفرد والتى ينظر اليها أفراد الجماعة بالتمييز والاحترام أو بالاعتراض والاحتقار . فمثلا اذا كانت هناك جماعة دينية ووجد بين أعضائها من يتبع تعاليم الدين ويسلك السلوك المتمشى معها فان فى صفاته بين هذه الجماعة ما يمنحه مكانة اجتماعية عالية ، فاذا ما انتقلنا الى عصابة من اللصوص مثلا ووجد بينها من له صفات الطيبة والرحمة والعدالة وعدم ايذاء الناس فهذه الصفات كفيلة بأن يحتل صاحبها من جماعة اللصوص مكانة اجتماعية دنيا .

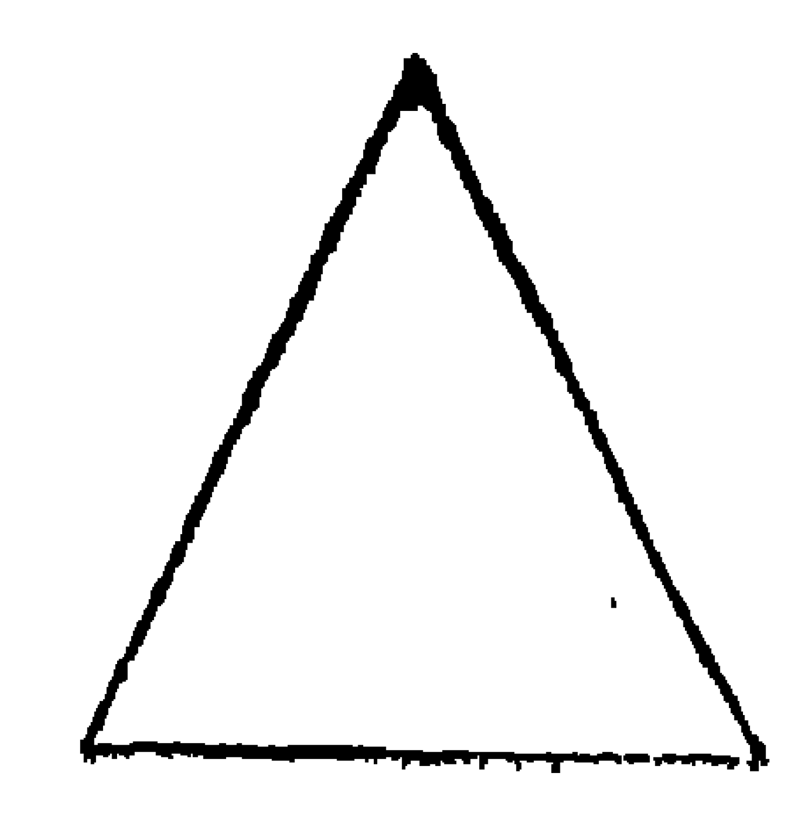
ويلاحظ دائما بأن المكانات الاجتماعية فى أى مجتمع من المجتمعات تأخذ شكلا هرميا بحيث تكون المكانات العليا قلة والمكانات الدنيا هى الكثرة . الا أن هذا الشكل الهرمى يختلف من مجتمع الى آخر فبينما

نجد مثلا أن هناك شكلا هرميا يتصف بعدالة توزيع المكانات الاجتماعية وعدم التفاوت الكثير بينها شكل (١) ، نجد فى مجتمع آخر أن له شكل هرمى يضع الغالبية من الناس فى المكانات الدنيا ويباعد بين المكانات الاجتماعية العليا والدنيا .



(شكل ١) (شكل ٢)

ويطلق على المكانات المتشابهة والمتقاربة فى المجتمع اسم الطبقة الاجتماعية ويقسم البعض البناء الطبقى فى المجتمع الى ثلاثة أقسام رئيسية هى الطبقة العليا والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا كما قد تنقسم كل طبقة من هذه الطبقات بدورها الى طبقتين فرعيتين عليا ودنيا وبذا يصبح عدد الطبقات الاجتماعية ست طبقات كالآتى (شكل ٣) .



الطبقة عليا
الطبقة دنيا العليا
الطبقة عليا الوسطى
الطبقة دنيا الوسطى
الطبقة عليا الدنيا
الطبقة دنيا الدنيا

(شكل ٣)

ويسمى كل فرد بطبيعة الحال أن يكتسب من الصفات المرغوبة فى المجتمع ما يتيح له الفرصة للارتقاء بمكانته الاجتماعية أو الصعود على السلم الاجتماعى بين الطبقات وتعرف هذه العملية بالحركة الاجتماعية الراسية (هذه خلاف الحركة الاجتماعية الأفقية التى تشير الى الانتقال المكانى للأفراد كالهجرة من الريف الى المدن) فالحركة الاجتماعية الراسية هى الحركة بين الطبقات الاجتماعية اما بالصعود أو بالهبوط .

ومن المجتمعات ما لا يعترض على هذه الحركة فيتيح لأفراده الفرصة للصعود بين الطبقات الاجتماعية بأعمالهم الحسنة ولا يتردد فى الهبوط بمكانات من لا يحسنون التصرف والسلوك مثل هذه المجتمعات تعتبر مجتمعات متحررة ديمقراطية ، بينما يوجد من المجتمعات ما لا يسمح لأبناء الطبقة الدنيا مهما حسنت أعمالهم من الحصول على المكانات العليا فى المجتمع كما يحمى أفراد الطبقات العليا من الانحدار اذا ساءت تصرفاتهم . هذه المجتمعات مثل المجتمعات الاقطاعية أو المجتمعات التى تنتشر بينها التفرقة العنصرية أو الدينية .

والمكانات الاجتماعية نوعان :

(ا) مكانات اجتماعية منسبة :

وهى تلك المكانات التى تلتصق أو تنسب للطفل منذ ولادته . فابن الملك يولد أميرا أو وليا للعهد محتلا مكانة اجتماعية عالية وكذلك ابن الزنجى فى جنوب الولايات المتحدة يولد ويحتل مكانة اجتماعية منخفضة لمجرد أن الأول أو الثانى قد ولد فى مثل هذه الظروف .

(ب) مكانات اجتماعية مكتسبة :

وهى تلك المكانات التى يحصل عليها الفرد بمجهوده . وعمله . فالدكتور طه حسين مثلا قد اكتسب مكانته الاجتماعية العالية بدراسته وجهوده وانتاجه ، كما أن هناك من كانوا من بين الطبقات العليا وأساءوا التصرف فاكتسبوا مكانات دنيا . ولاشك أن المكانات الاجتماعية المنسبة هى صفة من صفات المجتمعات الاقطاعية أو الجامدة وكلما زادت المكانات المكتسبة كلما كان المجتمع ذو نظام اجتماعى اكثر تحررا وديمقراطية .

٣ ـ السلطة :

وهو الحق الذى يمنح لبعض الأفراد للتأثير على الآخرين ، ويتضمن عنصر السلطة عادة واجبات ترتبط بهذه السلطة . فسلطة جندى المرور مثلا هو الحق الممنوح له للتأثير على السائقين وتوجيههم . ويرتبط طبعا بسلطة جندى المرور واجبات لحماية الأرواح وتنظيم سير المرور دون حوادث .

٤ ـ الحقوق :

وهى المناعة من السلطة ومن الواجبات أو المناعة من الطاعة المطلوبة للسلطة عند حد معين فمن سلطة رجل المرور مثلا أن يوقف السيارة المسرعة ويعطيها مخالفة أو حتى قد يعتقل صاحبها ، ولكن من حق سائق السيارة الا يضربه رجل المرور لسرعته أو لخطئه . فعند هذا الحد من السلطة تكون الحقوق .

والواقع ان هناك حالة توازن معينة بين السلطة والحقوق فى أى مجتمع ، فاذا قلت الأولى عن هـذا التوازن كانت الفوضى واذا قلت الثانية عن هذا التوازن كان الاستبداد والتحكم .

٥ ـ الأهـداف :

وهى تلك التغيرات (او قد تكون الابقاء على الوضع الراهن) الذى يسعى اليها أعضاء الجهاز ويتوقعون تحقيقها من وراء عمل الجهاز. ففريق كرة السلة مثلا يتوقع من وراء نشاطه تسلية معينة أو نصر معين او استفادة بدنية معينة وهذه التغيرات هى اهداف هـذا الجهاز . واحيانا يكون من اهداف الجهاز الابقاء على الوضع الراهن كما فى حالة الجماعات المحافظة أو الدينية احيانا . فبعد قيام الثورة وظهور فكرة الاصلاح الزراعى والقضاء على الاقطاع تكونت من بعض كبار الملاك جماعة او جهاز قام بنشاط كبير للنشر والمقابلات والمناقشات وكان هـدفه الابقاء على الوضع للحيلولة دون حدوث أى تغير .

وهكذا نرى ان الأهداف قد تكون احداث تغييرات أو قـد تكون محاولة الابقاء على الوضع الذى يسعى اليه اعضـاء الجهاز من وراء نشاطهم .

٦ — المعايير أو القوانين السلوكية :

وهى تلك القوانين التى تحد من استخدام الوسائل نحو تحقيق الأهداف . فأهداف شركة تجارية مثلا تنحصر فى الربح والحصول على المكسب . الا أن المعايير تحدد لها وسائل حصولها على هذا الهدف فتمنع استخدام وسائل الغش والخداع وتحصرها فى وسائل التجارة الشريفة وتتخذ هذه المعايير أنماطا معينة يتبعها الأفراد فى الاستجابة للمواقف المختلفة . فهناك انماط محددة للتحية والسلام وانماط تتبع فى التقابل مع الغير وانماط تتبع لتناول الطعام وهكذا .

وتتدرج هذه المعايير أو القوانين السلوكية ما بين الضعف والقوة فمنها الضعيف الذى لا يهتم المجتمع كثيرا باتباعه ومنها القوى الذى يصر المجتمع على احترامه . وأسس قياس ضعف أو قوة المعيار أو القانون السلوكى هى :

١ — مدى شمول القانون السلوكى : فكلما كان القانون السلوكى شاملا لقطاع كبير من أفراد المجتمع كلما كان قانونا قويا ، أما اذا كان سائدا بين جماعة قليلة من أبناء المجتمع فهو قانون ضعيف .

٢ — مدى استمرارية القانون السلوكى : فاذا استمر القانون السلوكى لفترة طويلة من الوقت كعدة اجيال مثلا كلما كان القانون قويا أما اذا اقتصر تأثيره على فترة قصيرة فهو قانون سلوكى ضعيف .

٣ — مدى الضغط الاجتماعى الذى يمارسه المجتمع لفرض القانون السلوكى : فكلما اهتم المجتمع بفرض القانون السلوكى واتبع ضغطا قويا ملزما على المنحرفين كلما كان القانون السلوكى قويا ، أما اذا كان ضغط المجتمع لفرض القانون السلوكى ضعيفا كان القانون نفسه ضعيفا .

ويمكن تقسيم القوانين السلوكية متدرجة من الأضعف الى الأقوى فى الأقسام الآتية :

(أ) التقليعة :

والتقاليع هى أضعف القوانين السلوكية وهى تكثر فى المجتمعات

ذات الثقافات الحديثة وتندر فى المجتمعات ذات الثقافات القــديمة .
ومن أمثلة التقاليع ما حدث منذ حوالى ثلاثين سنة فى مصر حينما قامت
حركة بين بعض الشباب ضد الطربوش الأحمر المعروف بدعوى أنه يمثل
السيادة التركية وطالبت بلبس طرابيش ملونة بأية ألوان خلاف اللون
الأحمر والزر الأسود وقد كانت حركة اتبعها البعض الا أنها بناء على
المقاييس السابقة .

(ا) لم يكن انتشارها كبيرة .

(ب) انها لم تستمر لوقت طــويل بل اختفت تقريبا بعد أشــهر
معدودة .

(جـ) أن المجتمع لم يضغط بأى حال على من لم يتبعهــا وربما كان
هناك مجرد اعجاب بسيط أو مجرد اعتراف بسيط لمن يتبعها فقط .

(ب) الموضة :

وهى معيار أقوى من التقليعة واغلب تواجده فى انماط الملبس .
وتتضح الموضة بشكل خاص فى أزياء السيدات . والموضة أقوى من
التقليعة للاسباب الآتية :

(ا) ان انتشارها ليس بين جميع افراد المجتمع بطبيعة الحال ولكنه
بين قطاع أكبر من القطاع الذى تنتشر بينه التقليعة .

(ب) انها مستمرة عادة لفترة أطول قد تصل الى عام أو عــــدة
أعوام .

(جـ) أن المجتمع يظهر من التأييد لمتبعيها ما يحبذ اتباعها ، كما وأنه
يضحك ممن يخالفها مخالفة صارخة . هذا التحبيذ ، وهذا الضحك أو
التهكم درجة أقوى من درجات الضغط الاجتماعى .

(جـ) العادات السلوكية الشعبية

وهى نوع أقوى من سابقه فهى تمثل اغلب عادات الاكل وطابع الملبس
فالرداء النسائى (زى النساء) والبدلة الرجالى (زى الرجال) وعادة

الأكل بالشوكة والسكين تمثل العادات السلوكية الشعبية . وواضح ان انتشار مثل هذه القوانين السلوكية أعم بين أبناء المجتمع ثم انها تستمر لفترات طويلة قد تصل الى أجيال عديدة ثم ان المجتمع غالبا ما يحتقر مخالفيها بدرجة واضحة .

(د) العرف والتقاليد

والعرف والتقاليد هى أقوى القوانين السلوكية غير المكتوبة وهى قوية التأثير فى المجتمع بحيث قد يصل عقوبة مخالفيها الى حد الاعتداء البدنى عليهم من قبل المجتمع وهى لم تصل الى ما وصلت اليه من قوى الا استنادا الى قدمها وارتباطها الوثيق بالقيم الاجتماعيــــة السائدة وما يحيط بهذه القيم من عواطف وعقائد عميقة .

(هـ) التشريع أو القانون الوضعى

وهى تلك القوانين السلوكية التى رأى المجتمع من أهميتها له ماجعله يخصص لها أجهزة كاملة لفرضها وعقاب مخالفيها أجهزه مثل القضاء والمحاماة والبوليس والسجون وغيرها . فهى بذلك أقوى انواع القوانين السلوكيــــة وان كانت فى أحيان كثيرة لا تزيد قـــوة عن قوة العرف والتقاليد .

الجزء الثانى

الريف المصرى

- نشاة المجتمع الريفى فى مصر
- الفلاحون فى مصر
- خصائص المجتمعات الريفية
- اشكال الاستيطان الريفى

نشأة المجتمع الريفى فى مصر

فى قديم الزمان ، كان الانسان الاول يعيش فى الغابات ، يقضى نهاره فى البحث عن الطعام فيأكل أوراق الشجر أو جذور النباتات ويستولى على بعض الطيور ليطعمها لاولاده ، وفى بعض الاحيان يصيد الحيوانات ليأكلها نية لانه لم يكن قد ذاق طعم اللحم المطبوخ بعد ، فاذا حل الظلام اختفى مع اسرته فى جزع شجرة كبيرة أو خلف بعض النباتات الكثيفة لتحميه من حيوانات الغابة أثناء نومه .

عاش الانسان آلاف السنين على هذا الحال لا يعرف معنى المسكن الثابت أو الملبس أو الاكل المطبوخ بعد ، يتعامل مع الحيوانات كواحد منهم اما ياكلهم أو ياكلوه .

وجاء العصر الجليدى الاخير فاختفت أوربا تحت طبقات من الجليد وماتت النباتات وهاجرت الحيوانات للجنوب وبدأ الانسان فى الهجرة أيضا ، الا ان بطئه نسبيا اضطره الى أن يختار بين الموت من البرد والجوع وبين التكيف مع الظروف الجديدة . وهكذا بدأ الانسان الاول فى صيد الدب لاستخدام جلده للحماية من البرد وطرد الحيوانات من الكهوف لكى يعيش مكانها فيحتمى من البرد القارس ويستخدم المكان كمخزن للاكل ، وبمرور الوقت اكتشف النار فحل مشكلة الدفء . وعاش الانسان الاوربى آلاف السنين على هذا الحال يحارب البرد والجوع .. وصل أثناءها الى صنع البلطة والشاكوش من الحجارة والاوانى من الطفل . وهكذا بدأ الانسان فى صنع حياته بعد ان كانت مصنوعة له .

وفى ذلك الوقت بينما كان الانسان الاوربى يعيش فى الكهوف يحارب الطبيعة الصعبة ، كانت هناك حياة أخرى فى المنطقة المعروفة باسم الشرق الاوسط الآن فقد كانت هذه تتمتع بمناخ معتدل ممطر ، تنتشر فيها الغابات والاحراش ، ويعيش فيها الانسان بطريقة سهلة نسبيا بالبحث عن الطعام على الاشجار ، أو بصيد الحيوانات كمـــا ذكرت فى بداية الموضوع . ونتيجة لذلك عاش الانسان فى هذه المناطق فى جماعات صغيرة يتجول دون انقطاع لا يعرف لنفسه مسكن ثابت ويستخدم اقل ما يمكن

وابسط ما يمكن من الآلات والادوات حتى يسهل عليه حملها فى تجواله .

وانتهى عصر الجليد فى أوربا وحل الدفء نسبيا مكان البرد القارس وبدأت قطعان الحيوانات فى الهجرة شمالا وتبعها قوم من الجنوب وبدأت بذلك مرحلة الرعى تحل محل مرحلة الصيد فى اوربا واحتل صيد الاسماك مكانا هاما أيضا .

اما فى منطقة الشرق الاوسط فقد انتهى أيضا عصر الجليد ، وحلت الصحارى الجدبة مكان النبات فى الشرق الاوسط ، وبدأت حركة هجرة كبيرة الى وديان الانهار كنهر النيل ونهرى دجلة والفرات .

وهنا يجب ان نقف قليلا لنشير الى حدث كبير سبب تغييرا أساسيا فى المجتمع الانسانى ، ففى وقت ما فى نهاية عصر الغابات وبداية عصر الصحارى فى الشرق الاوسط (منذ حوالى ١٢٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ سنة قبل الميلاد) (١) اكتشف الانسان الزراعة وبدأ فى استئناس الحيوان ، وادى هذا الى استقرار الانسان نسبيا فى مناطق الزراعة ، فاذا اتيحت لهؤلاء امكانيات الرى المستمرة واعتدال المناخ على مدار العام كان هذا ادعى لثباتهم واستقرارهم فى مكان واحد ونشوء مجتمع القرية ، وهذا هو ما حدث فعلا فقد اكتشفت الزراعة أول ما اكتشفت فى مكان ما فى الشرق الاوسط وبدأت المجتمعات الريفية فى الظهور فى وديان الانهار فى هذه المنطقة ثم انتشرت بعد ذلك فى أماكن متفرقة من الارض . ولم تكن عملية اكتشاف الزراعة واستئناس الحيوان ثم بدء المجتمعات الثابتة عملية سهلة ، فقد اقتضت من الانسان فى ذلك الوقت جهدا طويلا حتى تمكن من التعرف على عمليات الحرث والبذر والرى وجنى المحصول والدراس والطحن كما اقتضت منه مثابرة وصبرا حتى تمكن من استئناس بعض الحيوانات . لقد ظل الانسان يحاول ويحاول فينجح مرة ويخطىء مرات واستمر هكذا آلاف السنين فى تجارب واختبارات حتى انتقل من مرحلة البحث عن الطعام فى كل مكان الى مرحلة انتاج الطعام فى مكان ثابت .

وهكذا نتيجة لنشوء القرى انقسم سكان العالم الى نوعين : نوع رحل ونوع مستقر ، وأدت طبيعة الحياة لكل فريق الى ظهور ثقافتين

---

(١) هـ . ج . ويلز ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، موجز تاريخ العالم ، مكتبة النهضة المصرية — القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٤٩ .

متباينتين ... على ان ثقافة أهل الريف كانت ولا شك أرقى من ثقافة الرعاة الرحل والصيادين ، فقد ادى ثبات الانسان فى مكان واحد الى تحسن فى سكنه وملابسه وأدواته وظهور الاديان المنظمة .

ومرت آلاف السنين ، وتحسنت أدوات الزراعة وأصبح انتاج الزارع يفيض عن حاجته وحاجة أسرته ، فبدأ فى مبادلة الفائض مع الآخرين ، وتوسعت عملية التبادل هذه حتى اختص فيها بعض الناس وامتدت جغرافيا خطوة فخطوة حتى صارت دولية ، ونشأت لها أسواقا اخذت تجتذب مزيدا من الناس ومزيدا من الثروة . ومن ناحية اخرى أدى توفر الانتاج الزراعى الى أن تمكن بعض الناس من العمل فى مهن غير مهنة انتاج الغذاء وتبادله ، فتخصص بعض الناس فى صناعة الادوات الحجرية والخشبية وظهر رجال الطب والكهنة والكتاب كما تخصص بعض الناس أيضا فى مهنة استغلال الفلاح ، فقد اكتشفوا انه يمكنهم ان يعيشوا دون عناء فى سعة من العيش اذا تمكنوا من اجبار الفلاح على العمل لصالحهم بشكل أو آخر .

ونتيجة لهذا كله ، نشأت مراكز عمرانية تجارية وحرفية اكبر حجما واكثر سكانا وأوفر ثروة من القرى ، يعمل غالبية أهلها فى مهنة غير مهنة الزراعة أو تربية الحيوان . هذه المراكز كانت هى المدن الاولى فى العالم . واصبح لهذه المدن ثقافة خاصة تتميز عن ثقافة القرية وارقى منها درجة .

وهكذا نرى أن الثقافة الريفية تقف فى سلم التقدم الانسانى فى مرحلة تفوق ثقافة مجتمع الصيد أو الرعى والترحال .. وتقل عن ثقافة مجتمع التجارة والحرفة وبالتالى تقل عن ثقافة مجتمع الصناعة الآلية الذى ظهر بعد ذلك بآلاف السنين وادى الى ظهور المدن الكبيرة المعروفة فى المجتمعات المصنعة فى عالمنا اليوم .

نشأة المجتمع الريفى فى مصر :

قلنا ان اكتشاف الزراعة ادى الى ظهور مجتمعات ثابتة أو شبه ثابتة أطلقنا عليها اسم المجتمعات الريفية وقلنا ان تغير المناخ فى العالم ادى الى تغيرات مناخية أساسية فى الشرق الاوسط وشمال أفريقيا فتحولت من منطقة غابات الى منطقة صحارى جدباء مما ادى الى حدوثه

هجرات كبيرة الى وديان الانهار حيث يوجد الماء مستمرا على مدار العام .

هذا هو ما حدث فى مصر ، فاكتشاف الزراعة وبدء استئناس الحيوان فى وادى النيل حدث فى الغالب عندما كانت المنطقة لا زالت من مناطق الغابات ، وادى هذا الى ظهور مجتمعات شبه ثابتة فى مصر ، ثم ادى حلول الجفاف الى اختفاء الغابات وظهور اراضى معيشية تحولت الى قفار ثم الى صحارى . بدأ هذا أولا فى الجنوب اى فى السودان والنوبة ثم فى مصر العليا بينما استمرت الامطار فترة اطول فى المنطقة الشمالية القريبة من البحر .

ونتيجة لهذه التغيرات المناخية حدث شيئان :

١ — صارت سرعة جريان مياه النيل ابطأ مما كانت مما أدى الى ترسيب كميات كبيرة من الغرين الذى يحمله النهر على أرض مصر بدلا من قذفه الى البحر وبالطبع ساعد هذا على زيادة خصوبة الارض كما سهل على المصرى القديم التحكم فى مياه النيل .

٢ — انتقل السكان والحيوانات من جميع الجهات الى صميم الوادى مما ادى الى تركيز المجتمعات القروية حول مجرى النيل .

ولم تكن عملية السيطرة على الطبيعة سهلة فقد كان وادى النيل عبارة عن سلسلة من البرك والمستنقعات المتخلفة عن فيضان النيل كل عام ، وكان الفيضان يغمر الارض بشكل جعل المعيشة فى الارض الواطئة مستحيلا ، فكان على المصريين ان يبنوا قراهم فى أماكن مرتفعة ، بل ان كثيرا ما اضطر السكان الى بناء تلال يبنون فوقها قراهم (١) ، وكان عليهم أيضا أن يبتكروا الوسائل لعودة المياه الى الارض كل عام ، وهكذا انشئت القنوات والسدود فى كل مكان لتنظيم الرى . وقد بلغ من اهمية

(١) يقول الدكتور سليمان حزين فى كتاب تاريخ الحضارة المصرية فى الصفحة ١٧ من الجزء الاول : « كان الامر يستلزم ان تبنى القرية فوق كومة كبيرة وعالية ، يتضافر السكان على جمعها من تراب الارض ، لتكون من الضخامة بحيث لا يجرفها التيار ولا يتخللها الرشح .. وقد ترتب على ذلك تركيز القرى فى وحدات كبيرة » .

هذه العملية ان أصبح اللقب الرئيسى لحكام المقاطعات فى ذلك العصر هو « عدج مر » أى المشرف على حفر القنوات .

ونتيجة لهذه التغيرات الاقتصادية حدثت تغيرات فى حجم وعلاقات الناس المرتبطة ببعض فى وحدة اجتماعية ، ففى الاقتصاد القائم على جمع الغذاء اقتصرت الوحدة الاجتماعية على الافراد الذين تربطهم صلة الدم كالاسرة والعشيرة ، وفى بدء اكتشاف الزراعة وبدء الاستقرار النسبى نشأت القبيلة ، وبمرور الوقت استقرت أسر وعشائر وقبائل ليس بينها صلة الدم — استقرارا مستمرا مكونة مجتمعات ريفية ثابتة وكبيرة .

وادى هذا بدوره الى حدوث تغيرات فى أدوات الانسان ، ففى مرحلة الترحال كان على الانسان أن يحمل أدواته فكانت بذلك قليلة وبسيطة كما أشرنا سابقا ، أما وقد استقر الانسان فقد أصبح فى مقدوره أن ينوع فى أدواته ويزيد فى حجمها وعددها ويحسن فى مستواها وكفاءتها .

ونتيجة لتوفر المياه باستمرار وتحسن أدوات الزراعة ، امكن انتاج الغذاء على نطاق واسع واصبح فى الامكان توفير فائض للتجارة وتبع ذلك ظهور الحرفيين وظهور مبادىء المدن الصغيرة أو القرى الكبيرة التى كانت مراكز للتبادل التجارى بين الزراع والحرفيين ، وباتصال مصر بالبلاد المجاورة اتسع نطاق التبادل التجارى وظهر عـــدد من المراكز التجارية التى نمت بمرور الوقت مكونة مدنا اكبر حجما وأكثر تعقيدا ولكنها صغيرة بالنسبة لمدننا الكبيرة الحالية .

اى أن القرى التى كانت مستقلة بامورها اصبحت ترتبط بعدد من القرى حول قرية اكبر مكونة مناطق مختلفة» ، ثم اخذت هذه المناطق فى التجمع حول مدن صغيرة مكونة اقاليم مختلفة وبمرور الوقت قامت الامة المصرية مكونة اول وحدة ناضجة فى التاريخ .

وقد يرجع هذا الى ارتباط مصالح المصريين بالنيل الذى ربط بينهم وقد يرجع الى أن احتياج الفلاحين الى مشروعات كبرى للتجفيف والرى والصرف مما يستلزم وجود حكومات مركزية كبرى ، وقد يرجع الى اطماع الحكام فى بسط نفوذهم على منطقة اكبر .. المهم هو ان المصريين كانوا أول الشعوب التى عرفت معنى التعاون على نطاق قومى واسع .

واقتضى هذا التنظيم ظهور درجات مختلفة من الحكام واتباع الحكام على مستوى القرية ومستوى الاقليم والمستوى القومى ، وارتبط الحكم بالثروة وحياة البذخ من ناحية كما ارتبط بالطبيعة من ناحية أخرى ، اى انه ارتبط باستغلال الفلاح الذى كان هو المصدر الاساسى لانتاج الثروة فى البلاد كما ارتبط بتقسيم المواطنين الى ملك ونبلاء من ناحية وفلاحين وعبيد للارض وارقاء من ناحية اخرى .

مما سبق يمكننا ان تستنتج ما يلى :

١ — أن المجتمع الريفى المصرى مجتمع قديم للغاية ومن أوائل المجتمعات الريفية التى ظهرت فى هذا العالم .

٢ — ان مواقع القرى فى مصر حددها اساسا القرب من مصادر المياه (النيل) والاحتماء من الفيضان .

٣ — أن زيادة عدد سكان القرية المصرية فى العادة عن عدد سكان القرى فى كثير من بلاد العالم يرجع الى اسباب تاريخية اقتصادية وعمرانية .

٤ — أن تكدس السكان فى مكان ضيق تحيط به الصحارى واضطرار السكان الى المعيشة فى قرى محدودة المساحة يحيطها الفيضان ، أدى الى تقارب البيوت وتزاحمها وزيادة التعامل بين اهل القرية مما ادى الى نمو خبراتهم ومهاراتهم الاجتماعية .

الفلاحون فى مصر

ظهرت فى مصر حضارة كبرى هى حضارة الفراعنة التى كانت اساسا لحضارات العالم بعد ذلك ، اخترعوا الكتابة فكانت بلا شك اكبر اختراع فى التاريخ ، وقسموا الزمن الى مراحل . . الى سنوات وشهور وايام (٣٦٥ يوما وربع يوم) ، وبرعوا فى الفنون ، وظهر بينهم علماء فى الهندسة والكيمياء والطب والفلك والحساب ، وبنوا المعابد والاهرامات (١) ، وانشأوا الامبراطوريات الواسعة . . كل هذا حدث .

---

(١) مصطفى عامر ، **تاريخ الحضارة المصرية** ، حضارات مصر ما قبل التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٦٩ — ٧١ .

على أن انتفاع الفلاح من هذا كله كان ضئيلا للغاية ، فقد كان الخير الكبير يعود أساسا الى حاكم مصر وعائلته واتباعه من الحكام ثم الكهنة، كما كان يعود بقدر على سكان المدن الصغيرة الموجودة حينئذ ، اما الفلاحين فقد كانوا يقضون ايامهم كادحين فى الشمس وارجلهم فى الطين ملتزمين بتقاليدهم القديمة فى قراهم المبنية من الطين والبوص . وكانت علاقاتهم بالحكام تقوم على اربعة اشياء :

الدين : فقد كان الملك هو الاله الاكبر .

الضرائب : التى يجبيها مندوبوا الملك حكام المقاطعات بانتظام .

السخرة : لبناء المعابد والاهرامات وانشاء المشروعات .

الجندية : عندما كان الملك يرى أن عليه ان يقوم بغزوة من الغزوات أو أن يدافع عن البلاد ضد خطر خارجى .

ومع ذلك كان الفلاح راضيا أو على الاقل لم يبد اعتراضا ايجابيا ، ولم يقم بحركة تنم عن عدم رضائه عن الحكام ، ولا غرو فى ذلك فقد كان ملك مصر أو فرعون هو الاله نفسه .

واستمر وضع مجتمع الفلاحين على حاله تقريبا منذ قدماءالمصريين حتى عهدنا هذا يتراوح بين الفقر الشديد والفقر الاقل شدة ، بينما ينعم حكامه فى حياة البذخ والترف ... استمر على حالته القاسية تحت حكم الفرس ثم الاغريق ثم الرومان ثم العرب ثم الاتراك ثم الانجليز ، يفيق قليلا اذا ما اهتمت الدولة بالزراعة والرى وخفت وطأة الضرائب عنه ويسوء حاله اذا ما حدث عكس ذلك ، على انه كان على العموم — سواء فى فترات انتعاشه أو سوء حاله — فقيرا أشد الفقر ، مستضعفا أشد الاستضعاف ، ليس له وزن ولا حساب فى نظر الحكام ، لا يلجأون اليه الا لجباية الضرائب أو لاعمال السخرة أو الجندية ، وان خدم فلا يخدم كهدف فى حد ذاته وانما يخدم كأداة من أدوات الزراعة التى تعود بالنفع على الحكام واشباه الحكام .

فى هذه الصفحات سوف نحاول ان نتتبع بعض مظاهر حياة الفلاح فى مختلف العصور التاريخية بأمل الوصول الى تحديد لبعض اتجاهاته النفسية والاجتماعية .

١ ـ ملكية الارض :

كانت ملكية الارض أيام قدماء المصريين للملك أساسا فقد كان يملك كل شيء فى البلاد ، ولكى يشجع الملك اتباعه ويكافئهم بدأ فى الانعام عليهم بالاقطاعيات من الارض كهبات ، وهكذا ظهر ملاك آخرين تدريجيا ، وبمرور الوقت أصبح فى كل مقاطعة مالك كبير هو احد الامراء وملاك صغار هم كبار الموظفين والجند ، وتحت ضغط هؤلاء سمح الملك بتوريث الارض للابناء وهكذا انقسمت العزبة الملكية الكبرى الى مجموعة من العزب فى الاقاليم ، أما الفلاح فقد كان أجيرا فى الارض ، واستمر نفس النظام تقريبا فى عهد الاغريق والرومان ، فقد اعتبر هؤلاء مصر ضيعة لهم بحق الفتح وحق الملوك الالهى ثم بداوا فى توزيع الاقطاعات على الجند وكبار الموظفين ، بعضها على اساس التوريث وبعضها مدى حياة المنتفع ، أما الفلاح فقد استمر أجيرا فى الارض .

واستمر الحال على وضعه أيضا تحت حكم العرب مع اختلاف واحد وهو أن الخليفة الذى ورث اراضى الاباطرة الرومان بحق الفتح ـ كما يجيز الدين الاسلامى ـ لم يستول على الاراضى الخاصة كما فعل الاغريق والرومان بل تركها لاصحابها . وبانتقال الخلافة من الجزيرة العربية بدأ الامويون والعباسيون فى منح خواصهم الاقطاعيات حتى أصبحت أغلب البلاد اقطاعا للسلطان وأمرائه وجنوده أما الفلاح فقد استمر أجيرا فى الارض .

وفى عهد السلطان سليم قرر السلطان ان تصبح جميع الارض ملكا له وان يترك للمزارعين حق الانتفاع فقط ، وبذا تحول الملاك الى مستأجرين على انه ـ بمرور الوقت ـ أصبح هذا الوضع نظريا لضعف سلطة السلطان على الولاة المحليين فى انحاء الخلافة .

وفى عهد المماليك جرت الدولة على توزيع الارض بين السلطان والامراء والجنود وذلك تمشيا مع السياسة التى بدأتها الدولة الايوبية .. أما الفلاح فقد استمر اجيرا .

وفى نهاية عهد المماليك لجأ هؤلاء الى نظام غريب لجباية الضرائب

عرف بنظام الالتزام (١) جعل الملتزمين اشبه بالحكام الملاك المتصرفين فى شئون الفلاحين اكثر منهم جباه للضرائب .

وباستيلاء محمد على على الحكم الغى نظام الالتزام هذا وصادر غالبية املاك الملتزمين وجعل من نفسه مالكا للارض جميعها .. على انه اعترف بملكية بعض الملتزمين لاملاكهم التى كانت تعرف باسم « الوسيات» كما بدأ فى منح اقطاعيات واسعة من الاراضى لكبار موظفيه فى الجيش والادارة — وكانوا من الالبانيين والاتراك والشركس — وسميت هذه الاقطاعيات باسم « الابعاديات » كما منح أفراد أسرته أيضا اقطاعيات أكبر اطلق عليها اسم « الشفالك » ، وبالاضافة الى هذا كان محمد على يمنح المشايخ (العمد) قطع من الارض نظير خدماتهم اطلق عليها اسم « مسموح المشايخ » أما الفلاح — المنتج الحقيقى لثروة البلاد — فلم يكن له نصيب فى هذا التوزيع واستمرا أجيرا أو مؤاجرا صغيرا جدا للارض .

وفى عام ١٨٥٨ حدث شىء هام بالنسبة لملكية الاراضى الزراعية فى مصر فقد أصدر محمد سعيد باشا والى مصر ما سمى « باللائحة السعيدية » وفيها حددت قواعد تمليك الاراضى للفلاحين فاعطت الفلاح لاول مرة الحق فى أن يتصرف فى الارض التى يزرعها بالمبيع والرهن والايجار وأن تنتقل الى ورثته من بعده ، على ان الملكية القانونية استمرت للدولة . ويصف « جاك برك » هذا القانون فيقول « قانون ١٨٥٨ الذى يربط بصورة عجيبة بين توكيد ملكية الحاكم الهائلة وبين قبول حقيقة اخذه فى الانتشار ، فهو لا يزال يعلق كل انتقال من الاباء للابناء على مقدرة الورثة على الاداء ، كما يعلق كل تأجير وحتى كل نقل على تصريح ادارى (٢) .

وفى عام ١٨٩١ اختفى آخر هذه التحفظات اذ صدر « الديكريتو » أو القانون الذى اقر حقوق الفلاح القانونية الكاملة فى ملكية الارض !

فهل ملك الفلاح الارض حقيقة ؟ هذا هو ما سوف نوضحه تحت موضوع توزيع الملكية .

---

(١) سوف نشرح هذا النظام عند مناقشة موضوع الضرائب .

(٢) جاك برك ، ترجمة ابراهيم سوريال ، فى دلتا النيل ، مطالعات فى العلوم الاجتماعية العدد الرابع ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، خريف ١٩٥٩ ص ٥٧ .

٢ ـ توزيع ملكية الارض :

قلنا ان حكام مصر وملوكها كانوا يدعون دائما ملكية الاراضى الزراعية لانفسهم ، وقلنا انهم جميعا كانوا يوزعـــون الاقطاعيات على بطائنهم وأقاربهم ، وقلنا ان الفلاح لم يملك الارض الا منذ عام ١٨٩١ .. فهل ملك الفلاح حقيقة الارض ؟ حقيقة ان قانونا قد صدر ليعطى الفلاح الحق فى تملك الارض ، ولكن الواقع أن هذا القانون لم يفعل شيئا اكثر من نقل الفلاح من الضياع الاقتصادى إلى الضياع القانونى ، فقد اعترف القانون بحق الملكية بعد أن كان كل شيء قد وزع فعلا فلم يبق له الا الفتات ، ويتضح هذا من الجدول الآتى :

جدول رقم ١ توزيع ملكية الاراضى الزراعية فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر (١) .

الملكية بالفـدان	النسبة المئوية للملاك	النسبة المئوية للارض المملوكة
خمسة افدنة فاقل	٨٣ر٣ ٪	٢١ر٨ ٪
أكثر من خمسة الى عشرة	٨ر٨ ٪	١٠ر٩ ٪
أكثر من عشرة الى عشرين	٤ر٤ ٪	١٠ر٨ ٪
أكثر من عشرين الى ثلاثين	١ر٣ ٪	٥ر٩ ٪
أكثر من ثلاثين الى خمسين	٠ر٩ ٪	٦ر٨ ٪
أكثر من خمسين فدانا	١ر٣ ٪	٤٣ر٨ ٪

أى أن ٢ر٢ ٪ من الملاك كانوا يملكون فعلا أكثر من نصف الاراضى الزراعية أى اكثر من ٢ر٥ مليون فدان ، أو ان ٧ر٩ ٪ من الملاك كانوا يملكون اكثر من ثلثى الاراضى الزراعيـــة بينماكان يملك ٩٢ر١ ٪ من السكان اقل من ثلث الارض بمتوسط يبلغ حوالى فدان ونصف للفرد .

---

(١) الدكتور راشد البراوى ، الفلسفة الاقتصادية للثورة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٧ .

هذا بالطبع عدا نصف مليون اسرة (اى اكثر من ثلث سكان الريف فى ذلك الوقت) كانت لا تملك شيئا من الارض اطلاقا اى انها كانت معدمة .

فقانون عام ١٨٩١ اذن لم يعط الفلاح شيئا فى الواقع ، كل ما فعله هو انه حول الفقر غير القانونى الى فقر قانونى ، وفى نفس الوقت اعترف بالملكيات الكبيرة فجعلها قانونية يتداولها الابناء عن الآباء .

وبقيت الحال على حالها تقريبا حتى قامت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ، فقد كان توزيع ملكية الاراضى قبل قيام الثورة مباشرة كما يلى :

جدول ٢ توزيع ملكية الاراضى الزراعية قبل الثورة مباشرة (١٩٥٢) (١)

الملكية بالفدان	النسبة المئوية للملاك	النسبة المئوية للارض المملوكة
اقل من خمسة افدنة	٩٤ر٣ ٪	٣٥ر٤ ٪
من خمسة افدنة الى اقل من عشرة	٢ر٨ ٪	٨ر٨ ٪
من عشرة الى اقل من عشرين	١ر٧ ٪	١٠ر٧ ٪
من عشرين الى اقل من خمسين	٠ر٨ ٪	١٠ر٩ ٪
من خمسين الى اقل من مائة	٠ر٢ ٪	٧ر٢ ٪
من مائة الى اقل من مائتين	٠ر٦ ٪	٧ر٣ ٪
مائتين فاكثر	٠ر١ ٪	١٩ر٧ ٪

اى أن اقل من ٦ ٪ من الملاك كانوا يملكون حوالى ٦٥ ٪ من الارض بينما يملك اكثر من ٩٤ ٪ من الملاك حوالى ٣٥ ٪ من الارض وهى نفس النسبة السابقة تقريبا مع فرق اساسى واحد وهو ان زيادة السكان بمعدل اكبر كثيرا من معدل زيادة الارض الصالحة للزراعة ادى الى ان متوسط ما يخص المالك الواحد من الاراضى الزراعية اصبح فدانين تقريبا فى عام ١٩٥٢ بعد ان كان اكثر من خمسة افدنة ونصف فدان فى أواخر القرن الماضى .

---

(١) الجهاز المركزى للتعبئة العامة والاحصاء الجمهورية العربية المتحدة من ١٩٥٢ الى ١٩٦٤ ، القاهرة ، ص ٤٠ — ٤٣ .

وبقيام الثورة عام ١٩٥٢ صدر قانون الاصلاح الزراعى الذى حدد الملكية بمائتى فدان على الاكثر ، ثمّ صدر تعديل للقانون عام ١٩٦١ فحددها بمائة فدان على الاكثر للاسرة ، ونتيجة لهذا اصبح توزيع الملكية كما يلى :

جدول رقم ٣ توزيع ملكية الارض الزراعية عام ١٩٦٤

الملكية بالفدان	النسبة المئوية للملاك	النسبة المئوية للارض المملوكة
اقل من خمسة افدنة	٩٤ر٣ ٪	٥٤ر٨ ٪
من خمسة الى اقل من عشرة	٢ر٥ ٪	١٠ر٠ ٪
من عشرة الى أقل من عشرين	٢ر٠ ٪	٨ر٦ ٪
من عشرين الى أقل من خمسين	٠ر٩ ٪	١٣ر٣ ٪
من خمسين الى أقل من مائة	٠ر٢ ٪	٤ر٦ ٪
أكثر من مائة فدان	٠ر١ ٪	٦ر٩ ٪ (أراضى لم يتم الاستيلاء عليها)

أى ان حوالى ٦ ٪ من الملاك يملكون حوالى ٤٦ ٪ من الارض وان ٩٤ ٪ من الملاك يملكون حوالى ٥٤ ٪ من الارض ، فاذا قارنا توزيع ملكية الاراضى الزراعية هذا بمثيله قبل الثورة نجد ان هناك فرقا واضحا .

وفى عام ١٩٧٠ صدر التعديل الثانى للقانون الذى حدد ملكية الاسرة بخمسين فدانا على الاكثر .

٣ — الضرائب :

قلنا ان ضريبة الارض كانت تمثل العلاقة الاولى — بل الوحيدة فى كثير من الاحيان — بين الفلاح والحاكم فى مصر ، فقد كانت ضريبة الارض هى المصدر الرئيسى لدخل الدولة فى اغلب العصور .

تقوم الدولة من ناحيتها — كلما تمنت — بتهيئة مشروعات الرى حتى

يمكن للفلاح ان يزرع ويحصد ثم يدفع الضريبة التى يحددها له كتبة الحكومة .

وفى العصور القديمة ، كان هؤلاء الكتبة يطوفون القـــرى ومعهم الحراس ، فاذا اتضح ان الفلاح قد اهمل فى زراعة ارضه ولم يتمكن من اداء الضريبة أخذت الارض منه واعطيت لغيره .

وكانت الضريبة شيئا مقدسا ، يرغم على أدائها الفلاحون مهما كانت حالة الارض . وفى هذا يقول احد الكتاب فى عهد الاسرة السادســـة « أصبحت الارض عارية ولكن ضرائبها كثيرة وغلتها قليلة ووكيل الضرائب كبيرا ، يملؤونه حتى يطفح » (١) .

وكانت جباية الضرائب تتم بكل اصرار وشدة وصلت مداها فى العصر الرومانى حين أدت قسوة الضرائب الى هرب كثير من الارض أو ترك الاراضى قليلة الغلة دون زراعة مما أدى الى جدب كثير من الاراضى وسوء حالة الفلاح . وتقول الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف فى هذا « لم يدخر الاباطرة البيزنطيين وسعا للحصول على اكثر ما يمكن من الضرائب التى كان يقع عبؤها على كواهل المصريين دون غيرهم ممن كانوا يقيدون فى مصر » كما قالت فى مكان آخر « كانت الضرائب مصدر شكوى للفلاحين وكانت تقع مظالم كثيرة فى جباية تلك الاموال ولا سيما على الفلاح الصغير »(٢). ويقول الدكتور ابراهيم نصحى « كان هؤلاء الجباة يعتبرون مسئولين عن أى عجز فى حصيلة الضرائب المقررة على منطقة كل منهم ولذلك كانوا يوغلون فى جمع الضرائب تفاديا لحدوث هذا العجز . ويحدثنا « غيلون » بأن قرى بأكملها هجرت الارض بسبب ما أنزله جباة الضرائب من ارهاق بأهلها » (٣) .

وبدخـــول العرب مصر تحسنت وســـائل جباية الضرائب ورتبت

---

(١) جون ولسون : ترجمة احمد فخرى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٩١ .

(٢) الدكتورة سيدة اسماعيل ، مصر فى عهد الولاة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٨ و ١٢ .

(٣) الدكتور ابراهيم نصحى ، تأريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثانى ، مكتبة مصر ، القاهرة ، ص ١٦٨ — ١٦٩ .

مواعيدها بما يتفق ومصلحة الفلاح ويقول الدكتور حسين مؤنس فى هذا: « كان دافع الضرائب فى تلك الاعصر السابقة على الاسلام يدفع فى الواقع اكثر بكثير من المقرر عليه ، وربما دفع الضعف ، اذ أن عمال الدولة كانوا يحرصون على أن يستفضلوا لانفسهم مبالغ جسيمة وكان عبء ذلك يقع على الناس ، فلما جاء الاسلام انقطع ذلك وأصبح الناس يدفعون المقرر عليهم قانونا فحسب » (١) ومع ذلك ففى أيام الخلافة الاموية والعباسية كانت مهمة الحكومة الاولى هى «جمع الضرائب واستثمار الارض واستغلال الفلاح كما كانت الحال فى العهد البيزنطى » (٢) وساء الوضع كثيرا تحت الحكم التركى وخاصة ابان حكم المماليك بعد ان انقطع عنهم دخل الترانسيت من مرور التجارة الدولية بمصر باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، ففى ذلك الوقت لم يجد المماليك بدا من الاعتماد كليا على الضرائب الداخلية وخاصة ضريبة الارض فأدخلوا نظام الالتزام (٥) .

ويتلخص نظام الالتزام فى أن تحول الحكومة حقها فى جمع الضرائب الى وكلاء عنها من اكابر البلاد الذين يقومون بجمع ما يريدون من الضرائب من الفلاحين نظير قيامهم بدفع مبالغ معينة مقدما للحكومة كل عام . وكان الالتزام فى بدايته محدود المدة ، الا انه بالوقت أصبح مستمرا طيلة العمر للملتزم بل ويرثه اولاده من بعده ، ونتيجة لهذا نشأت طبقة من الحكام الصغار المسيطرين القساة متفننة فى طرق الضغط والاجبار لتأخذ الضرائب فى أى وقت تشاء ولاكبر عدد من المرات كل عام بل وتستولى على كل ما يملكه الفلاح اذا بدا أنه يملك شيئا . ويقول الجبرتى فى هذا: « كان الفلاحون مع الملتزمين اذل من العبد للمشترى فربما كان العبد يهرب من سيده إذا كلفه فوق طاقته او أهانه بالضرب ، اما الفلاح فلا يمكنه أن يهرب ، وكان من طرائفهم انه اذا آن وقت الحصاد والتحضير طلبه الملتزم أو قائم مقامه الفلاحين ، فمن تخلف بعذر أحضره الخفير او المشد وسحبه من شنبه وأشبعه سبا وشتما وضربا » (٤) .

---

(١) الدكتور حسين مؤنس — تاريخ الحضارة المصرية ، نفس المرجع السابق ، ص ٣٥٧ .

(٢) الدكتورة سيدة اسماعيل ، نفس المرجع السابق ، ص ١٩٣ .

(٣) كان هذا النظام تقريبا معمولا به أيام حكم الاغريق والرومان .

(٤) من مقال لمحمد شفيق غربال ، نظرات تاريخية فى الريف المصرى ، صحيفة التربية يناير — مارس ١٩٥٣ ، القاهرة ، ص ٦٢ .

وكان دخل هذه الضريبة التي يجمعها الملتزمون يقسم الى ثلاثة اقسام : قسم لبيت المال ، تدفع منه جزية السلطان ، وقسم للسنجق أو الكاشف ، والجزء الباقى للملتزم .

وجاء محمد على فألغى نظام الالتزام كما اشرنا ونظم جمع الضرائب سنويا ، ولكنه سرعان ما اكتشف أن مشروعاته وحروبه تحتاج الى تمويل جديد من الفلاح فرفع الضرائب ونوع فيها وجعل القرى متضامنة فى الضرائب فتتحمل قرية متأخرات قرية أخرى ، فى الوقتالذى أعفى فيه أصحاب الشفالك والابعديات من الضرائب .

على أن هذا الحال تحسن قليلا فى عهد عباس الاول وعهد سعيد حسين حيث قلت المشروعات وقلت الحاجة الى المال .

ثم اتى اسماعيل بطموحه ومشروعاته واسرافه وبذخه وديونه فأجهد الفلاح بضرائب لم يعهدها من قبل . وبتراكم الديون على مصر ازداد ضغط اسماعيل على الفلاح وتنوعت وسائل القسوة والوحشية فى جباية الضرائب .

ثم عاد الحال فتحسن نسبيا فى أواخر القرن التاسع عشر واستمر الى وقتنا هذا .

مما سبق يلاحظ القارىء انه قد حدث ـ أثناء القرن التاسع عشر ـ ارتباط بين نشاط الحكومة واجتهادها فى خدمة البلاد وبين كمية الضرائب التى تجمع من الفلاح ، فالحكومات النشطة والمنتجة مثل حكومتى محمد على واسماعيل اهتمت بجباية الضرائب لتمويل مشروعاتها فشقى بذلك الفلاح ، والحكومات المترددة المتكاسلة مثل حكومتى عباس الاول وسعيد تركت الفلاح وحاله فاطمأن باله ، وهذا ولاشك استنتاج لا محل له لما يلى :

١ ـ ان الضرائب التى كانت تجبى من الفلاح لم تكن تستخدم جميعها فى خدمة البلاد وانما كانت تقتسم لفترة طويلة بين الباب العالى والحكومة .

ب ـ أن مشروعات الحكومات النشطة لم تكن تخدم الفلاح بقدر ما كانت تخدم الحاكم نفسه وفئة خاصة من الاتراك والالبانيين والشراكسة حتى مشروعات الزراعة والرى التى تبدو وكأنها خدمة للفلاح لم تقم بقصد خدمة الفلاح وانما قامت أساسا بقصد زيادة دخل الحاكم وكبار الملاك عن طريق تحسين حال الزراعة فى أراضيهم الواسعة الشاسعة .

جـ ـ ان جزءا كبيرا من دخل الضرائب كان ينفق على حياة البذخ المخيف التى كان يحياها الحكام وكبار رجال الدولة مما لا يتمشى اطلاقا مع ما كان يعانيه الفلاح من شظف العيش وقسوة الحياة، كما أن جزءا آخر كان ينفق على مغامرات حربية لا طائل منها الا ازدياد سطوة الحاكم الشخصية .

د ـ انه لم تكن هناك عدالة فى توزيع الضرائب بين سائر المواطنين ، ففى الوقت الذى كان ينهك فيه الفلاح بالضرائب كانت باقى فئات الشعب وخاصة الحكام والامراء وكبار رجال الدولة لا يكادون يشعرون بها .

هـ ـ ان جزءا كبيرا من المشكلة لم يكن فى قيمته الضريبية نفسها ولكنه كان فى طريقة جمعها وفى توقيت جمعها ، وقد كانت طرق الجباية كما أشرنا تتسم بالقسوة البالغة بل والوحشية فى كثير من الاحيان، كما كانت مواعيد جمعها كثيرا ما لا يتفق مع مواعيد جمع المحصول .

من هذا كله نرى أن جمع الضرائب فى حد ذاته ليس خطأ وان زيادة الضرائب بهدف التنمية ليس خطأ ايضا ، وانما الخطأ كل الخطأ هو الا تكون هناك عدالة فى جمع الضرائب ، أو عدالة فى توزيع الخير الناتج عن استغلال أموال الضرائب ، أو سوء الاستغلال لاموال الشعب ، أو الالتجاء للشدة والقسوة فى جمع هذه الضرائب .

٤ ـ السخرة :

كان نظام السخرة معترفا به فى جميع العصور التاريخية التى مرت بمصر الى عهد قريب ، والمقصود بنظام السخرة هنا اجبار القوى للضعيف أو الحكومة للمواطنين على العمل بدون أجر .

ففي العصور القديمة ، كان الحكام يجبرون الفلاحين على العمل بدون أجر فى بناء الاهرامات والمعابد وحفر القنوات للرى ، ويضرب جون ولسون لذلك مثلا مشيرا الى أمر أصدره بيبى الاول بالنيابة عن سلفه سنفرو حيث يقول « أمر جلالتى بان تعفى هاتان المدينتان (مدينتى هرمى وسنفرو) الى الابد من أداء أى عمل للقصر ، ومن أى عمل بالقوة لاجل المقر الملكى الىالابد ومن أىسخرة يامر بها أى انسان الى الابد»(١) .

أما فى عهد الرومان ، فيقول الدكتور ابراهيم نصحى مشيرا الى نظام السخرة « ويمكن اعتبار تسخير الاهالى للعمل فى تطهير الترع وصيانة الجسور ضريبة ثقيلة يبدو أنه لم يعف من أدائها الا الموظفين وسكان الاسكندرية والفئات التى كانت تدفع نقدا ضريبة السخرة » (٢) .

وفى العصور الوسطى كان كبار الملاك والملتزمون يجبرون الفلاحين على العمل فى حفر الترع وتطهيرها وبناء القناطر ومد الجسور بدون أجر أيضا .

ويقول جاك برك عن السخرة فى القرن التاسع عشر « دمرت السخرة الحياة الريفية خلال القرن التاسع عشر كله ، ولم تفعل فترة الاعمال العظيمة شيئا الا أن تزيد من ثقلها » ، ثم يعود فيقول على لسان أحد مهندسى الرى فى مصر « عندما بدأنا نناقش صراحة امكانية الغاء نظام السخرة هذا ، كان يوجد فى البلاد حزب محافظ قديم جدا يصر على فكرة أن السخرة نظام ممتاز يمتد الى آلاف السنين وعلى أن الفلاحين انفسهم سيعلنون أنهم ضد الغائه » (٣) .

والواقع أن نظام السخرة كان موضع نقاش الى عهد قريب فالبعض يقول انه نظام لا انسانى والبعض الآخر يقول انه ، ولو أن العمل فى أرض الغير قد يكون من أعمال السخرة ، الا أن العمل فى حفر الترع وتطهيرها وبناء القناطر وما شابه ذلك يعود بالنفع المباشر على الفلاح لرى زراعته، فهى اذن أعمال يمكن اعتبارها ضريبة عينية يدفعها الفلاح عن طريق العمل

(١) جون ولسون ، المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

(٢) الدكتور ابراهيم نصحى ، نفس المرجع السابق ، ص ١٦٨ .

(٣) جاك برك ، نفس المرجع السابق ، ص ٦٥ .

بدلا من ان يدفع ضريبة للحكومة ثم يعود فيأخذها بالتالى على شكل أجور .

الواقع أنه مهما قلنا وشبهنا فان كل هذه الاعمال تعتبر ولاشك من اعمال السخرة للاسباب التالية :

ا — كانت السخرة تفرض على الفقراء المستضعفين فقط ويعفى منها الاغنياء الذين هم أصحاب المصلحة الاولى فى حفر الترع وتطهيرها ومد الجسور ، فهى اذن — لو نظر اليها كضريبة — ضريبة غير عادلة .

ب — لم يقتصر نظام السخرة على حرمان الفلاحين من أجورهم فقط ولكنه امتد الى طريقة معاملة الفلاحين فى فترة السخرة ، فقد كانوا يساقون اجباريا بالآلاف الى كل مشروع دون النظر الى حاجة زراعاتهم الخاصة تحت ضغط من الارهاب والكرباج ، مربوطين بالحبال أحيانا ، ثم يدفعون الى العمل دفعا ، فاذا ما تردد احدهم أو تلكأ انهال عليه الحراس ضربا ، واذا سقط احدهم ميتا من الاجهاد والضرب دفن فى حفرة واستمر العمل وكأن شيئا لم يحدث ، فنظام السخرة اذن فيه ارهاب بدنى ونفسى ، وفيه انكار لانسانية الفلاح واساءة بالغة لكرامته .

فلو أن هذه الاعمال وزعت بطريقة عادلة فيشترك كل مصرى فى المهمات الوطنية والمسئوليات الاجتماعية العامة ، ولو أن معاملة الفلاح أثناء العمل كانت معاملة انسانية .. لو ان هذا حدث ، لما نظرنا اليها على أنها عمل من اعمال السخرة ، فالعيب الاساسى اذن فى طريقة التنفيذ لا فى أصل الفكرة وهى اشراك المواطنين لاصلاح حال مجتمعهم عن طريق بذل مجهود تطوعى مشترك .

هذا وقد اضطرت الحكومة ، لاعتراضات الفلاحين المتكررة ، بل وامتناعهم عن العمل بهذه الطريقة وازدياد مقاومتهم لها بطرقهم الخاصة الى الغاء نظام السخرة عام ١٨٨٩ رسميا على الاقل ، ولكن ممارسته بطريقة مستترة ظل قائما حتى الجيل الحاضر وخاصة فى أملاك كبار الملاك .

٥ ـ قسوة الحكام :

أشرنا اشارات عابرة الى بعض مظاهر قسوة الحكام على الفلاحين فى العصور المختلفة ، لا من ناحية كثرة الضرائب وأعمال السخرة فحسب، ولكن من ناحية العقوبات التى كان يتلقاها الفلاح اذا ما اعترض أو تلكأ فى تنفيذ طلبات الحكام .

ويقول جون ولسون فى هذا عن معاملة الفلاح أيام قدماء المصريين « ولا تتناسب شدة العقوبات بأى صورة من الصور مع الذنوب ، فاذا اخذ احد القارب الذى يستخدم لتسليم الضرائب يوقع عليه العقاب بقطع أنفه ونفيه الى ثارو » (١) .

وكان ضرب الفلاح بالكرباج وسيلة اساسية معترف بها فى مصر فى جميع العصور عند جمع الضرائب أو جمع أفواج الفلاحين لاعمال السخرة أو الجندية أو محاولة اجبار الفلاح على الاعتراف بتهمة أو جريمة ، كانت هذه الوسيلة معترف بها لدرجة أنها أصبحت جزءا لا يتجزأ من العلاقة بين الحاكم والفلاح لدرجة أن الحكام كانوا يفخرون بآثار السياط التى يجلدون بها لاداء الضرائب .

ولم تكن عقوبة الكرباج هى العقوبة الوحيدة ، فقد قال الجبرتى (٢) فى هذا الموضوع فى أماكن متفرقة من كتابه المعروف أن الضرب والسحب من الشنب والسب والشتم وقطع شحمة الاذن والحبس وضرب النساء كلها كانت وسائل عادية للارهاب .

هذا ، وتشير بعض كتب التاريخ الى أن محمد على كان يلجأ أحيانا الى حد صلب الفلاح على رأس غيطه ليكون عبرة للآخرين ، وأن بعض مديرى الاقاليم كانوا يلجأون الى استخدام النار عن طريق تقريبها من وجه الفلاح لاستخلاص بعض الاعترافات منه .

---

(١) جون ولسون ، نفس المرجع السابق ، ص ٣٨٢ .

(٢) عبد الرحمن الجبرتى عجائب الاثار فى التراجم والاخبار ، طبعة ١٣٩٧ هجرية ، القاهرة ، صفحات مختلفة .

٦ — الحروب المستمرة :

منذ فجر التاريخ ومصر فى حروب لا تكاد تنقطع ، فما أن تنتهى من حرب حتى تبدأ فى حرب أخرى ، ففى عهد الدولة القديمة والوسطى كانت الحروب الدفاعية مع ليبيا والنوبة وبدو سينا بحالة شبه مستمرة، وفى عهد الدولة الحديثة بدأ عهد الفتوحات ... فتوحات تحتمس الاول فى سوريا وبلاد النوبة ، وغزوات تحتمس الثالث التى بلغت سبعة عشر غزوة فى سوريا والعراق ، وغارات أمنحتب الثالث على بلاد النوبة ، وحروب سيتى الاول فى فلسطين وليبيا ، ورمسيس الثانى مع الحيثيين التى دامت خمسة عشر عاما ، وحروب رمسيس الثالث معهم ايضا .. واستمر الحال هكذا حتى ظهرت دولة الفرس التى هاجمت مصر واحتلتها بعد مقاومة عنيفة من المصريين وتبعتها دولة الاغـريق ثم الرومان ثم العرب . وفى عهد الدولة الطولونية ثم الاخشيدية ثم الفاطمية والايوبية استأنف حكام مصر مغامراتهم الحربية ولكن دور الفلاحين فى هذهالعمليات كان محدودا لتحريم المصريين من العمل فى جيش البلاد — كمحـاربين أساسيين — فى ذلك الوقت .

على أن اشتراك الفلاح فى الحروب عاد عند حملة لويس التاسع على مصر ثم حروب محمد على وابنـه ابراهيم فى الشـام والمورة والحجاز والسودان ثم حروب اسماعيل فى السودان ثم الحرب السودانيـة ثم الحرب العالمية الاولى ... الى آخر هذه القائمة الطويلة .

اى أن مصر كانت فى اغلب عهودها مشغولة بحروب اما دفاعية او هجومية ، وكان الفلاح هو وقود هذه الحروب التى لم يكن له رأى فيهـا أو صالح يأتيه منها ، يجبر على الاشتراك فيها اجبارا ويدفع فى اتونها دفعا ، فاذا انتصر كان الخير للحكام واذا انهزم كان الغرم عليه .

٧ — ابعاد الفلاحين عن الحكم :

لا نقصد هنا بالطبع اشراك الفلاحين فى حكم الدولة ، فهذا امـر بعيد المنال وبعيد عن التصور فى اى عهد من عهـود الحكم منذ قدماء المصريين الى بداية ثورة ١٩٥٢ ، ولا نقصد حتى اشراك الفلاحين فى حكم المقاطعة أو المديرية أو المحافظة ... فهذا ايضا لم يحدث فى فترة من

الفترات . وانما المقصود هو اشراك الفلاحين فى حكم القرية ، والمقصود بالفلاحين هنا العمال الزراعيين وصغار الملاك .

تحدثنا كتب التاريخ عن اشكال من المجالس المحلية فى القرى أيام قدماء المصريين (كانت فى الواقع مجالس للاعيان) ، وفى عهد الاغريق والرومان ألغيت هذه المجالس وحل محلها محصلين للضرائب وكاتب القرية والشرطة ويعاونهم فى هذا عدد من الشيوخ من ثراة كل قرية . وفى عهد العرب استمر هذا النظام على وضعه حتى حل نظام الالتزام فى عهد المماليك فأصبح الملتزم مسئولا عن ادارة القرى المنوط بها ويعاونه فى ذلك عدد من الموظفين ، ولم يكن من بين هؤلاء عن الفلاحين الا الخولية والكلافين أى الوظائف الدنيا ، أما المشايخ فقد كانوا عادة من أعيان القرية ويتوارثون المشيخة فيما بينهم . وفى عهد محمد على الغى نظام الالتزام وأصبح لكل قرية شيخ بلد يعاونه عدد من الوكلاء من اعيان القرية عادة واستمر هذا الوضع حتى أنشئت المجالس القروية عام ١٩١٨ فى نطاق محدود جدا ، وكانت هى الاخرى أشبه بمجالس الاعيان ، واستمر نظام العمد (غير اسم شيخ البلد الى اسم العمدة فى عهد اسماعيل) والمشايخ كما هو جنبا الى جنب مع مجالس القرى ، وفى عام ١٩٦٠ بعد قيام ثورة الشعب صدر قانون الادارة المحلية الذى عدل فى نظام مجالس القرى تعديلا جذريا فاشترك فيها العمال والفلاحين بنسبة النصف على الاقل فى جميع المجالس ، وبذا بدأ عهد اشتراك الشعب فى حكم نفسه .

والواقع أن الحكم الاجنبى والنظام الاقطاعى الذى كان موجودا فى مصر فى أغلب العهود لم يترك فرصة لاشتراك الفلاحين فى الحكم فقد كان المستعمر الافريقى والرومانى والعربى مسيطر فى العادة على الحكومة المركزية وحكومات الاقاليم تاركا حكومة القرية لكبار الملاك الذين يخضعون الفلاحون لاراداتهم عن طريق القسوة حينا والهيمنة على مقدراتهم الاقتصادية حينا آخر ... حتى فى الفترات الاخيرة منذ ثورة عرابى ووصول الكفاح الشعبى الى مرحلة لا بأس بها واضطرار الانجليز الى اشراك المصريين فى الحكم فى مستويات مختلفة فان الفرصة كانت مواتية لكبار الملاك دون غيرهم وبقى الفلاح الحقيقى بعيدا عن الاشتراك فى الحكم أيا كان اونه أو مستواه .

ونتيجة لهذا كله كانت الامور تسير اما فى صالح المستعمر المستغل

او صالح المالك الكبير المستغل ... اما الفلاح فقد كان دائما هو موضع الاستغلال .

٨ ـ الاصلاحات لطبقة خاصة :

لم يخل الامر من مشروعات اصلاحية فى الرى والزراعة على مر السنين ، ففى عهد امنحات الثالث مثلا من الدولة الوسطى بنى سد اللاهون (٢٧ ميلا) (١) وبذا تم استصلاح سبعة وعشرين الف فدان كما أصبحت بحيرة موريس فى الفيوم مخزنا عظيما للمياه يستخدم لرى الوجه البحرى وقت التحاريق ، وفى عهد محمد على انشئت القناطر الخيرية لتحويل الرى الحوضى فى الدلتا الى رى دائم كما تم حفر ترع كثيرة أهمها ترعة المحمودية وبحر شبين والمنصورية وأدخلت زراعات جديدة أهمها زراعة القطن ، وفى عهد اسماعيل تم حفر ترعة الابراهيمية كما ادخلت زراعة قصب السكر ، وفى بداية القرن العشرين تم انشاء قناطر اسيوط وخزان اسوان وقناطر اسنا وقناطر زفتى وقناطر نجع حمادى كما انشئت كثير من الترع والمصارف .

ومع كل هذه الاصلاحات بقى الفلاح كما هو على حاله وذلك لان الخير الكبير من هذه المشروعات كان يعود على الحكام وكبار الملاك ، ففى عهد محمد على عندما تحسنت أحوال الزراعة فرض الوالى نظام الاحتكار ورفع قيمة الضرائب مما أدى الى أن الفلاح لم يستفد من مشروعات الاصلاح بالرغم من زيادة ميزانية الحكومة ، وفى عهد اسماعيل ايضا عندما انتهى من حفر ترعة الابراهيمية أمر الخديوى بضم معظم الاراضى الواقعة على جانبى الترعة الى أرضه الخاصة كما أنه احتكر زراعة قصب السكر لنفسه .

ولم يكن هذا الامر قاصرا على الحكام فقد كان كبار الملاك ، الى ماقبل ثورة ١٩٥٢ مباشرة ، يضغطون على الحكومة لانشاء المشروعات التى تخدم أراضيهم الخاصة ، ويتسابقون الى شراء أراضى الغير أو أراضى الحكومة عندما يعلمون أن مشروعا حكوميا سوف يرفع من انتاجيتها ؛ وهكذا كان النظام بأكمله يخدم كبار الملاك ، فما يبدو اصلاحا للفلاح كان فى

---

(١) الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، **تاريخ الحضارة المصرية** ، نفس المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

الواقع اصلاح للاقطاعيين وأشباه الاقطاعيين أساسا ، ولا غرو فى ذلك فقد كان منهم الحكام والوزراء وأعضاء مجالس الشورى والنواب والشيوخ ومجالس المديريات أى انهم كانوا مهيمنين على الحكم بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

فاذا أضفنا الى هذا أن المشروعات كانت تنشأ عن طريق السخره ، كما أوضحنا سابقا ، لرأينا مدى الغرم الذى كان يقع على الفلاح ، ولفهمنا لماذا كان الفلاح ينظر الى كل اصلاح نظرة ارتياب واحتياط .

٩ — فساد الحكم :

لم يسلم عصر من العصور فى مصر من الرشوة والوساطة واستغلال النفوذ ، فما دام هناك حكام مسيطرون بيدهم القانون ، وما دام الجهاز الحكومى ضعيفا بطيئا ، وما دامت رقابة الشعب ضعيفة أو غير موجودة، فلابد من وجود الرشوة والوساطة واستغلال النفوذ ... قد تزيد حدتها فى فترة من الفترات أو على مستوى من المستويات ، وقد تقل أيضا فى فترة ما أو على مستوى معين ، ولكنها موجودة على اى حال .

يقول جون ولسون انه جاء فى وثيقة يرجع تاريخها الى عهد حور محب من الاسرة السابعة عشر « ... الآن أمنت الدولة على حقوقها القانونية فى الضرائب والسخرة ، وعملت على حماية ممتلكات الفقراء من نهب الجنود أو من جامعى الضرائب المحبين للسرقة » (١) .

وتقول الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف عن العصر العباسى ... « ولا بد أن بعض ولاة مصر وعمال خراجها وبعض الموظفين فيها تمكنوا من الاثراء وجمع الاموال الطائلة ، وخاصة فى العصر العباسى ، حين كثر تولية العمال وعزلهم » (٢) .

ويقول الجبرتى فى موضوع الرشوة اثناء تحصيل الضرائب من الفلاحين أيام المماليك :

---

(١) جون ولسون ، ترجمة احمد فخرى ، الحضارة المصرية ، نفس المرجع السابق ، ص ٣٨١ .

(٢) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، مصر فى عهد الولاة ، نفس المرجع السابق ، ص ١٩٥ .

« ... واذا غلق أحدهم (أى أحد الفلاحين) ما عليه ... وطلب من المعلم وردد (أى وثيقة الدفع) وعده لوقت آخر حتى يحرر حسابه، فلا يقدر الفلاح على مراودته خوفا منه ، فاذا سأله بعد ذلك قال له بقى عليك حبتان من فدان أو خروبتان ولا يعطيه ورقة الغلاق الا بالهدية والرشوة » (١) .

ويقول أيضا اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » بخصوص الرشوة فى عهد اسماعيل باشا :

« يرشو المقاول الوزير ليحصل على عقد بشروط مجزية له ، ثم يرشو الكاتب حتى لا يدقق فى تنفيذ شروط العقد ، ويرشو الموظف رئيسه حتى يحصل على ترقية ، ويرشو صاحب الارض مهندس الرى حتى يحصل على ماء لزراعته أكثر من حقه ، اما القضاة فقد كانوا يأخذون من كل من المدعى والمتهم ثم يصدرون الحكم فى صالح من يدفع أكثر من زميله ، وكان المساحون يأخذون الرشوة ليزوروا فى مساحات الارض ، كما يأخذ شيوخ القرى الرشوة لاعفاء الفلاحين من السخرة والجندية، أما الشرطة فقد كانوا يأخذون الرشوة من كل من يشاء سوء حظه الاتصال بهم » (٢) .

ولا اظن أن كرومر قد غالى فى هذا الوصف فكلنا يعرف أن كثيرا من هذه الصور لا زالت تحدث الى وقتنا هذا ، فما بالك بوقت كان فيه الحكام انفسهم من المرتشين .

وهكذا تعلم المصريون ومنهم الفلاحين ان الامور لا تسير الا بالرشوة، وأن الوساطة هى الوسيلة الفعالة للحصول على الحقوق ، وما دام الفلاح لا يملك المال للرشوة ولا معرفة الكبار للوساطة فأمره لله ... حقيقة انه قد يرشو شيخ البلد أو شيخ الغفر أو العمدة او ضابط النقطة ، ولكنه لا يمكنه أن يذهب أكثر من ذلك .

---

(١) شفيق غربال ، نظرات تاريخية فى الريف المصرى ، صحيفة التربة ، يناير — مارس سنة ١٩٥٣ ، القاهرة ، ص ٦٢ .

(٢) Millner, A. : England in Egypt, Edward Arould Publisher to the India Office, London, 1903.

وببدء عهد مجالس النواب والشيوخ والانتخابات والاحزاب ، وجد الفلاح الفرصة سانحة لقضاء بعض أمور عن طريق الوساطة ... عن طريق نائبه فى البرلمان وعن طريق أعضاء الحزب الذين كانوا يقضون جل وقتهم فى الوساطة لناخبيهم .

واستمر هذا الحال الى وقتنا هذا ، فالفلاح يحاول أن يقضى حاجته فى المحافظة عن طريق وساطة أعضاء مجلس المحافظة وأعضاء الاتحاد الاشتراكى ، ويحاول أن يقضى حاجته فى العاصمة عن طريق وساطة أعضاء مجلس الامة وكل من يصل اليه من ذوى النفوذ . ولا مانع عنده من استخدام الرشوة — على شكل هدايا على الاقل — اذا تأزم الموقف وتوفر المال لديه .

١٠ — تأخر التعليم فى الريف :

مهما قلنا عن نظام التعليم أيام قدماء المصريين ، وعن اهتمام الاغريق والرومان بالتعليم فى مصر ، وعن انتشار الكتاتيب فى الريف أيام العرب ، وعن علاقة الازهر بالريف منذ الفاطميين وعن النهضة التعليمية ووصول بعض الريفيين الى التعليم العالى (الخصوصى) أيام محمد على واسماعيل ، وعن دخول التعليم الحديث الى الريف فى العصور الحديثة وانتشاره فى أغلب القرى فى عهد الثورة ... مهما قلنا وشرحنا وفصلنا ، فان الثابت على مر التاريخ هو أن الفلاح لم يأخذ نصيبه من التعليم فى أى فترة من الفترات ، وانه كانت هناك مقاومة مستمرة ضد تعليم الفلاح من جانب المستعمر وكبار الملاك ، وأن نسبة الأمية فى الريف كانت شديدة الارتفاع فى كل العصور مع ذبذبات بسيطة ، حتى فى عهد الثورة فلا زالت نسبة الامية فى الريف فوق الـ ٧٥ ٪ .

وسواء ارجع هذا لقلة عدد المدارس فى الريف أو لعدم اقبال الريفيين على التعليم أو لانخفاض مستوى المعلمين بالريف أو لنزوح المتعلمين من الريف الى المدينة ، مهما قلنا من أسباب ... فان هـذا لن يغير من الواقع شيئا وهو أن فلاحنا عاش على مر العصـور بعيـدا عن العلم والمتعلمين وخاصة العلم بمفهومه الحديث .

وادى هذا الى انتشار الخرافات والسحـر والدجل فى القرى ، فالمريض يعالج بالوصفات البلدية أو بالاحجبة والتمائم وقراءة الاوراد

والزار على ايدى بعض المشايخ او المتحسين بالمشيخة ، والسارق يستدل عليــه عن طريق المندل ، وكزوج يعود لزوجته اذا ما رضى عنها الجان واتباع الجان ، والمعتوه يعتبر شيخا بينه وبين الآلهة صلات روحية يتبرك به الناس ويتقربون اليه .

وأدى هذا الى زيادة التباعد بين الفلاحين والعلم الحديث ومقاومتهم للمتعلمين خارج نطاق رجال الدين بل واعتبــارهم كفــرة فى كثير من الاحيــان .

ومهما قلنا فى انتشار العلم فى الريف فى السنوات الاخيرة عن طريق المدارس الحديثة والمراكز الاجتماعية والوحدات المجمعــة والصــحافة والاذاعة واتصال الريف بأهل المدن ... مهما قلنا من هذا ، فانه لا يمكننا انكار أثر الخرافة والدجل فى توجيه حياة فلاحنا المعاصر ، خاصة وقد ارتبطت فى اذهانهم بالدين والمشيخة ... صحيح أن هذا الاثر قد قل درجة أو درجتين ولكنه لا يزال موجودا وواضحا بشكل لا يمكنا من اغفال أثره فى تفكير وعاطفة الغالبية الكبرى من سكان القرى .

١١ — الاستعمار الانجليزى والفلاح :

اهتم المستعمر الانجليزى بالزراعة والفلاح اهتماما خاصا كما قد يستنتج القارىء من مجريات الامور بعد الاحتلال الانجليزى أثناء سردنا السابق ، فقد تم انشاء كثير من القناطر وتم حفر كثير من الترع كمــا صدر قانون الملكية وقانون الغاء السخرة وخفضت الضرائب أثناء فترة الاحتلال هذه ، فكيف تم هذا ونحن نعلم ما يضمره الانجليز لبلادنا من عداوة ؟ الواقع أن هذا يرجع الى سببين رئيسيين :

ا — كانت خطة الانجليز فى مصر تتلخص فى جعلها مزرعة كبيرة ممتازة للقطن تمد مصانعها فى لانكشير بالقطن الجيد باستمرار ، فكان عليها أن تهيء لهذه المزرعة أحسن الظروف التى ترفع من مستوى انتاجيتها كما وكيفا .

ب — رأى الانجليز أن من مصالحهم التقرب بشتى الطرق الى الفلاحين الدين يمثلون الغالبية الكبرى من سكان البلاد وذلك طمعافى اثبات حسن نواياهم تجاه الشعب الذى كانوا يشعرون بكرهه الشديد

لهم ، وحتى يقطعوا الطريق على الفئات المتعلمة التى كانت تعمل جاهدة على اخراجهم من البلاد .

ويقول الدكتور محمد أنيس فى هذا :

« ان اهتمام الاحتلال بشكل واضح بالمسألة الزراعية ليجعل من مصر مزرعة لمصانع القطن البريطانية ... كان من شأنه ان يخدع بعض قطاعات الفلاحين بالنسبة لنوايا الاحتلال ... وظل هذا الاعتقاد سائدا حتى حدثت حادثة دنشواى عام ١٩٠٦ وفيها اكتشف الفلاح المصرى ضراوة الاحتلال وبشاعته وانه لا يضمر له خيرا ، ثم جاءت الحرب العالمية الاولى مؤكدة لهذه الحقيقة فما حدث فى الحرب من جمع الفلاحين بالقوة تحت اسم المتطوعين للخدمة فى الجيوش البريطانية ومن الاستيلاء على محصولات الفلاحين الزراعية ومواشيهم وهو ما عرف بالسلطة ، كل ذلك غير من نظرة الفلاح المصرى نحو الاحتلال ... » (١) .

أى أن الانجليز كادوا ينجحون فى استمالة هذه الفئة اليهم لولا الظروف التى أجبرتهم على الظهور بوجههم الصحيح .

والواقع أن الفلاح المصرى فقد كثيرا تحت الحكم الانجليزى كما يتضح مما يلى :

أ — فى فترة الاحتلال الانجليزى زاد تركيز الملكية الزراعية فى أيدى قليلة وبذا زاد الاغنياء غنا وازداد الفلاح فقرا .

ب — حارب الانجليز الصناعة بكل الطرق مما سد طريق العمل أمام الفلاح فى مهن جديدة تدر عليه ربحا أوفر ، فى الوقت الذى زاد فيه عدد سكان القرى عن حاجة الزراعة ، وبذا انتشرت بينهم البطالة وخاصة البطالة المقنعة .

جـ — حارب الانجليز التعليم بكل الطرق فقللوا من ميزانيته والغوا المجانية التى كانت نظاما قائما منذ بداية النهضة التعليمية فى مصر ، وفرضوا المصروفات الباهظة وجعلوا اللغة الانجليزية لغة

---

(١) دكتور محمد أنيس ، ثورة ١٩١٩ ، العدد ٥٢ من مجلة الكاتب ، اغسطس ١٩٦٥م القاهرة ، ص ٣٨ — ٣٩ .

التعليم وبذا قلت فرصة الشعب فى التعليم وانتهت فرصة الفلاح المحدودة فى ارسال أبنائه للمدارس .

د ـ تحالف الانجليز مع كبار الملاك واعطوهم كل فرص السيطرة على الحكم بحجة عدم رغبتهم فى التدخل فى الحكم .

ولعل الفقـرة التالية من كتاب ملنر تعطى القارىء فكرة عن رأى الانجليز فى المستوى الذى يجب أن يعيش عليه الفلاح .. يقول ملنر :

« الفلاح المصرى فقير ولا شك ... ولكنه لا يقاسى من فقره ... فما هى مشكلة الفقر اذا كنت تجد الأكل دواما ، وما دمت تقضى حياتك تحت أشعة الشمس وفى الهواء الطلق ، واذا كانت اخف الملابس تعطيك دفئا كافيا ، وابسط المبانى تعطيك الحماية اللازمة ، وعندما لا يكون امامك شتاء قارسا تستعد له ... فاذا كان الفلاح المصرى فقيرا فان احتياجاته قليلة أيضا » (١) .

١٢ ـ مكان الفلاح بين طبقات الامة :

منذ قدماء المصريين والفلاح له طبقة خاصة به تختلف عن باقى طبقات الامة ، ويقول جون ولسون (٢) فى هذا أن الطبقات فى العهود القديمة أيام المصريين القدماء كانت بالترتيب التالى فى أغلب أوقاتها : الملوك ثم الكهنة والأمراء ثم النبـلاء ثم المحاربين ثم الموظفين ثم التجار ثم الصناع ثم الفلاحين ثم عبيد الارض الارقاء .

ويقول محمد العزب موسى عن فترة الاقطاع فى مصر القديمة « كان الاقطاعى ينقسم عادة الى طبقتين وهما طبقة الاشراف وتتكون من حكام الاقاليم وكبار الموظفين وقواد الجند والكهنة واسراتهم وطبقة الشعب باختلاف طوائفه ومهنه ، وكما كان الاشراف يورثون ابناءهم ثرواتهم

---

(١) The Earl of Cromer, Macmillan & Co., London, 1911, pp. 189-190.

(٢) جون ولسون ، ترجمة احمد فخرى ، الحضارة المصرية ، نفس المرجع السابق ، ص ١٢٥ وصفحات اخرى .

والقابهم وأراضيهم كذلك كان الشعب العامل يورث أبناءه الفقر والكدح » (١) .

ويقول الدكتور ابراهيم نصحى(٢) ان الطبقات فى الفترة الاولى من حكم الاغريق كانت بالترتيب التالى : الاغريق ثم الارستقراطية المصرية بشقيها الدنيوى والدينى ثم التجار والصناع والفلاحين ، وفى الفترة التالية من حكمهم أصبحت الطبقات كما يلى : الاغريق ، ثم الكهنة ثم المحاربين ثم الموظفين ثم التجار ثم الصناع والفلاحين .

ويقول الدكتور ابراهيم نصحى (٣) أيضا فى نفس المرجع أن الطبقات فى عهد الرومان كانت بالترتيب التالى : الرومان ثم الاغريق ثم اليهود ثم الكهنة المصريين ثم المصريين المتأغرقين ثم التجار والصناع والفلاحين .

وتقول الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف (٤) أن العرب فى بداية حكمهم لمصر كانوا يترفعون عن الاشتغال بالزراعة وكانوا لا يشتغلون الا بالسياسة والحكم والحرب .

ويقول الدكتور ابراهيم على طرخان (٥) ان المماليك كانوا يقسمون سكان مصر الى قسمين رئيسيين : « الاسياد وأولاد الناس » وهم المماليك ، « والعامة أو العوام أو الشعب » وهم بقية سكان المدن ، أما سكان الريف فكانوا يقسمون الى العربان ثم الفلاحين . فكان بذلك ترتيب الطبقات كما يلى : السلطان ثم أبناء السلطان (الاسياد) ثم باقى المماليك

---

(١) محمد العزب موسى ، أول ثورة على الاقطاع ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٥٨ .

(٢) دكتور ابراهيم نصحى ، تاريخ الحضارة المصرية ، مصر فى عهد البطالمة ، نفس المرجع السابق ، ص ٧٢ — ٧٧ .

(٣) دكتور ابراهيم نصحى ، تاريخ الحضارة المصرية ، مصر فى عهد الرومان ، نفس المرجع السابق ، ص ١٧٦ — ١٨٥ .

(٤) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، مصر فى عهد الولاة ، نفس المرجع السابق ، ص ١٣٥ .

(٥) دكتور ابراهيم على طرخان ، مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(أولاد الناس) ثم أثرياء التجار والصناع (بياض العلة) ثم باقى سكان المدن (العامة) ثم العربان ثم الفلاحين ثم المتعطلين واللصوص (الحرافيش أو الزعر او الزعار اوالعياق) .

ويقول ملنر (١) . ان الطبقات فى المدن المصرية فى أواخر القرن التاسع عشر كانت تبدأ من أعلى بالباشوات ومن قاربهم فى الغنى ثم البكوات ثم الافندية أما فى القرى فقد كانت تبدأ بالباشوات ثم تنتهى من أسفل بالفلاحين ، ولم يكن بينهما الا طبقة صغيرة من الملاك المتوسطين عادة — هى طبقة العمد والمشايخ .

مما سبق نرى ان نظرة المجتمع المصرى للفلاحين كانت دائما على مر العصور نظرة امتهان واحتقار ، بل أن كملة فلاح كثيرا ما كانت تستعمل للسب أو للاشارة الى الجهل والسذاجة وعدم المعرفة بمبادىء السلوك المتحضر .

١٣ — ثورة الفلاحين :

نتيجة لهذا كله ، نمت فى صدر الفلاح ثورة عارمة لم يمكنه أن يعبر عنها بأعمال العنف فلم تكن فى غالبية الاوقات ثورة ايجابية هجومية ولكنها كانت ثورة سلبية تعتمد على المقاومة العنيدة التى تتصف بالصلابة والاصرار والاستمرار ، ومن اساليب هذه المقاومة ما يلى :

أ — **التهرب من الجندية بكل السبل** حتى ولو ادى هذا الى فقأ احد العينين .

ب — **الاختفاء وعدم الاعتراف** بمكان المختفين عندما تبدأ الحكومة فى جمع الفلاحين لاعمال السخرة ، والاصرار على ذلك مهما أبدى مندوب الحكومة من قسوة وشدة .

جـ — **اخفاء الاموال** وجزء من المحاصيل عند جمع الضرائب ، وتحمل

---

(١) Millner, A.: England in Egypt, ibid., pp. 322-327.

الضرب والاهانة بعناد واصرار ، وعدم الاعتراف بوجود اموال او محاصيل زائدة لديه .

د — **اتلاف المحصول والتبليغ عن الحادثة** على أنه ليس له دخل فيها .
هـ — **الهرب من الارض** حتى لا يقوم بزراعتها فى بعض الاحيان .

وفى هذا يقول الدكتور ابراهيم نصحى عن الفلاح أيام الحكم البطلمى (عهد بطليموس الثانى) « تحدثنا الوثائق عن تكرار وقوع اضطرابات عندئذ بين المزارعين كانت تنتهى باضرابهم عن العمل وفرارهم الى المعابد للاحتماء بالآلهة ، وقد أخذت هذه الاضطرابات تزداد عنفا على مضى الزمن » (١) .

كما تقول الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف عن الفلاح ابان الحكم البيزنطى « قاوم المصريون الاضطهاد الاقتصادى الدينى بالمقاومة الايجابية أحيانا ، ولكن الغالبية من الشعب لجأت الى المقاومة السلبية وذلك بالفرار الى المعابد والاديرة ، وبهجر مزارعهم وقراهم » (٢) .

وقالت أيضا الدكتورة سيدة فى نفس الموضوع ابان الحكم العربى « وقد اهتم الولاة والخلفاء فى ذلك العصر بقمع الحركات والثورات التى كانت تحدث فى مصر من وقت لآخر وبالقضاء على حركة الهروب حتى لا يسبب ذلك أضرارا بالزراعة نتيجة قلة الايدى العاملة وترك المزارع » (٣) .

وقال الدكتور ابراهيم نصحى فى نفس الموضوع أيضا ابان العصر البطلمى « عندما اتبعت الحكومة شتى الحيل لضمان استغلال أرض الملك ، اضطرت الى الالتجاء الى الاكراه لتحقيق بغيتها ، لكنها بقدر

---

(١) دكتور ابراهيم نصحى ، **تاريخ الحضارة المصرية** ، العصر اليونانى والرومانى ، نفس المرجع السابق ، ص ٧٩ — ٨٠ .

(٢) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، مصر فى عهد الولاة ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٣) دكتورة سيدة اسماعيل كاشف ، مصر فى عهد الولاة ، نفس المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

ما أوغلت فى استخدام هذه الوسيلة استفحل داء هرب المزارعين حتى أصبح وباء متفشيا فى كل أنحاء مصر » (١) .

كانت هذه هى الوسائل الاساسية للفلاح فى مقاومة تعسف الحكومة ، وبمرور الوقت أصبحت هذه الوسائل الملتوية مظهرا من مظاهر الرجولة الريفية فمن الرجولة أن يتمكن الفلاح من الهرب من الجندية والسخرة ، ومن الرجولة أن يتحمل الفلاح الضرب حتى يتنازل مندوب الحكومة عن الضريبة أو جزء منها ، حتى قال البعض « ان المصريين ذوو صبر وجلد على الالم غريبين وان الواحد منهم يفضل الموت تعذيبا على افشـــاء سره » (٢) . كما يقول كرومر عن « مومسن » « كان الرومان يؤكدون أن المصريين يفتخرون بعلامات الضرب على أجسادهم التى كانت تؤدى الى تخفيض الضريبة » كما يقول أيضا عن « ماكون » عام ١٨٧٧ « كان الفلاح الذى لا يتحمل الضرب لتخفيض الضريبة يحتقر من الجميع حتى زوجته » (٣) .

هذا ، ويقول محمد شفيق غربال ان نظام الرهينة عند المسيحيين فى صميمه وليد ثورة الفلاحين المصريين ، وهى فى ظاهرها ثورة على الحياة الدنيوية ، ولكنها فى حقيقتها وواقعها ثورة على المدينة ، وكل ما ترمز له حياة المدن (٤) .

وفى هذا يقول الدكتور محمد أنيس « كان الفلاحون فى مصر طبقة ثائرة على الاوضاع السياسية والاجتماعية بصفة مستمرة كثوراتهم على الاحتلال الفرنسى فى مصر وثوراتهم ضد محمد على وابنه ابراهيم خصوصا فى الصعيد ، كما اشترك الفلاحون فى الثورة العرابية » (٢) .

---

(١) دكتور ابراهيم نصحى ، تاريخ الحضارة المصرية ، مصر فى عهد البطالمة ، نفس المرجع السابق ، ص ٥٢ .

القاهرة ، ص ٣٨ .

(٢) محمود فهمى ، مصر فى عهد الرومان ، مجموعة محاضرات جامعية ١٩١٥ ،

(٣) Earl of Cromer, Modern Egypt, ebid, p. 609.

(٤) محمد شفيق غربال ، تكوين مصر ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٨ — ٤٩ .

(٥) دكتور محمد أنيس ، ثورة ١٩١٩ ، العدد ٥٢ من مجلة الكاتب ، اغسطس ١٩٦٥ ، القاهرة ، ص ٣٨ .

ماذا نستخلص مما سبق :

بعد كل هذا الوصف لحياة الفلاح على مر السنين .. ماذا نستخلص؟
نستخلص من كل هذا ما يلى :

١ - نستخلص أن الفلاح كان دائما وعلى مر العصور مستضعفا كل الاستضعاف ، مهانا كل المهانة مستغلا كل الاستغلال ... فمن حقه علينا ان نعطيه الفرصة كاملة ليحيا حياة كريمة .

٢ - نستخلص أن الأرض الزراعية كانت ملك حاكم الدولة فى اغلب العصور وملك لرجال الاقطاع فى بعض العصور ولم ينملك الفلاح القلة القليلة من الارض الا منذ ثلاثة أجيال فقط .

٣ - نستخلص ان الفترة البسيطة التى تمتع فيها قليل من الفلاحين بملكية الارض أفسدها سوء التوزيع حيث كان دائما فى صالح كبار الملاك .

٤ - نستخلص ان الفئة التى كانت تحصل على خير البلاد منذ قدماء المصريين حتى قيام ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ لم تكن مصرية بل كانت من الفرس والاغريق والرومان والمماليك والاتراك .

٥ - نستخلص ان الفلاح كان مبعدا دائما ابعادا يكاد يكون كاملا عن حكم بلاده ولم تكن لديه الفرصة الحقيقية فى وقت من الاوقات للتأثير الايجابى على مقدراته .

٦ - نستخلص أن الاصلاحات كانت دائما لخدمة جميع الطبقات ما عدا طبقة الفلاحين .

٧ - نستخلص أن فساد الحكم وانتشار الرشوة والمحسوبية لم يعط الفلاح فرصة للدفاع عن مصالحه بالطرق القانونية أو الاستفادةمن الاصلاحات الموجودة .

٨ - نستخلص أن نصيب الفلاح من المجهودات التعليمية المبذولة كان ضعيفا للغاية واقتصر فى أحسن حالاته على تعليم الدين والقراءة والكتابة ومبادىء الحساب .

٩ - نستخلص أن المجتمع كان ينظر الى الفلاح دائما على أنه ادنى الطبقات كما يعتبر الفلاحة أدنى المهن .

١٠- نستخلص أن الفلاح لم يكن راضيا عن هذه الظروف فى اى وقت من الاوقات ، بل ان هقاومها باستمرار باصرار وشجاعة عن طريق المقاومة السلبية فبدت لبعض الناس وكأنها استسلام للظروف .

وادى هذا كله الى ما يلى :

١ ـ شعور عام بالظلم والمهانة والمذلة .
٢ ـ عدم الثقة بالحكومة وممثلى الحكومة وان ارادت به خيرا ، وعدم الثقة بالغرباء وبكل من يلبس البدلة .
٣ ـ الالتجاء الى أساليب التحايل والمكر فيخفى ما يملكه ويتظاهر بالفقر الشديد وذلك حماية لنفسه من ارتفاع الضرائب واستغلال كبار الملاك .
٤ ـ عدم التحمس لمشروعات الاصلاح ، فهو يعلم مقدما انها لن تخدمه هو وانما سوف تخدم غيره من كبار الملاك وسكان المدن .
٥ ـ عدم الخبرة بشئون الحكم وأساليبه .
٦ ـ الالتجاء الى كبار الملاك لحمايته ما دامت الحكومة لا تحميه ... مما ادى الى تقوية العصبيات فى الريف وتدعيم سيطرة كبار الملاك .
٧ ـ الايمان بأن الوساطة والرشوة هى السبيل الامثل لقضاء حاجاته ومصالحه فى الحكومة .
٨ ـ الالتجاء الى الخرافات والوان الدجل لحل مشكلاته والشك فى قيمة العلم والمتعلمين .

وبعد ، فهذاهو فلاحنا المصرى الذى طحنته الظروف القاسية على مر العصور فخلقت منه انسانا ذو ثقافة خاصة تختلف عن ثقافة أهل المدن ولا غرو فى ذلك فهى تعكس خبراته المتراكمة على مر السنين ... خبراته مع الحكومة ومع الاقطاع ومع المستعمر ومع المتعلمين ... وهى ولا شك خبرات اليمة وقاسية .

خصائص المجتمعات الريفية

من السهل ان نتبين خصائص الحياة الاجتماعية فى المجتمعات الريفية لو قورنت بالحياة فى المجتمعات الحضرية . فبعض هذه الفروق واضحة للعيان ، فالمدينة أكبر من القرية سكانا والثقافة الحضرية أكثر تحررا وسرعة فى التغير . الا أنه بجانب ذلك توجد من الفروق الهامة ما يجدر مناقشته بالتفصيل حتى نتبين طبيعة هذه الحياة الريفية .

وسنحاول فيما يلى ان نستعرض أهم خصائص هــــذه المجتمعات الريفية مع المقارنة بينها وبين الحياة الحضرية (١) .

١ — حجم المجتمع :

فالمجتمع الريفى صغير نسبيا اذا قورن بالمجتمع الحضرى . والقرية فى مساحتها وحجم مبانيها أصغر بكثير من المدينة .

٢ — السكان :

سكان المجتمع الريفى أقل عددا من سكان المدينة كما أن الكثافــــة السكانية (عدد السكان فى الكيلو متر/الميل المربع) أقل فى الريف عنها فى المدينة .

٣ — المهنة :

المهنة الغالبة فى المجتمع الريفى هى الزراعة بطبيعة الحال . والزراعة مهنة متكاملة تتطلب معلومات وخبرات ومهارات واسعة اذا قارناها بأية مهنة اخرى . الواقع أن مهنة الزراعة هى مهنة مركبة من أكثر من مهنة واحدة . فالفلاح يقوم بأعمال الزراعة النباتية والزراعة الحيوانية كما انه يقوم بجميع مراحل العمل ففى الزراعة النباتية مثلا يقوم المزارع بعمليات مقاومة الآفات والتسميد وكذلك بالتسويق .

كذلك يعرف عن مهنة الزراعة أن ظروف العمل بهاعادة هى ظروف

---

(١) هذه الخصائص خاصة بالمجتمعات الريفية عموما وسنضيف اليها بعض الصفات المميزة الخاصة للريف العربى فى الفصل التالى .

يتوفر فيها الجو الصحى أكثر من ظروف معظم الاعمـــال الاخرى . فالفلاح يعمل فى الحقل والهواء الطلق والشمس وهو عادة (اذا استثنينا بعض المناطق حيث الامراض المتوطنة المنتشرة عن طـــريق مياه الرى وغيرها) يتمتع بصحة أوفر من عمله عما يتمتع به العمال الآخرون فى الصناعات الاخرى .

والزراعة مهنة عائلية تشترك جميع أفراد العائلة فيها . فهنـــاك تقسيم للعمل فى الزراعة ولكنه تقسيم غير دقيق ويشترك فيه افرادالاسرة جميعا . هذا الاشتراك فى العمل الزراعى يزيد من ترابط وتماسك أفراد الاسرة الريفية المعروفين .

٤ ـ وقت العمل والبطالة :

الزراعة مهنة يعرف عنها عدم انتظام ساعات العمل بها . فهنـــاك مواسم يعمل فيها المزارع ليلا ونهارا بينما توجد مواسم أخرى لا يزيد عمل المزارع فيها عن مجرد الاشراف على بعض العمليات البسيطة أو الانتظار دون عمل ، وبينما يوجد تحديد واضح لاوقات العمل والراحة فى أعمال المدينة فان هذا التحديد غير معروف فى العمل الزراعى .

أما من ناحية البطالة فالبطالة الشائعة فى العمل الزراعى من نوعين أحدهما موسمية وهى الناشئة عن عدم انتظام العمل الزراعى بمعنى أن البطالة تكون فى مواســم يقل أو ينعدم فيهــا العمل الزراعى . والنوع الثانى من البطــالة الشائعة فى الريف هى ما تعرف بالبطــالة المقنعة أو الخفية ونعنى بها أن العمــل الزراعى يقوم به عدد من العاملين أكثر مما يتطلبــه ذلك العمل أى أن هنــاك تزاحم وكثرة على العمــل أكثر مما يحتاجه العمل . فكأن هناك قلة فى الكفاية الانتاجية تصل الى درجة يطلق عليها اسم البطــالة الخفية . أما اذا نظرنا الى المجتمع الحضرى فالبطالة الشائعة فيه هى النوع العادى فاما أن يعمل العامل فى المصنع أو لا يعمل وان كان هناك بطالة موسمية كما فى مصانع المياه الغـازية التى يزدهر فيها العمل فى مواسم الصيف ويقل فى مواسم الشتاء .

٥ ـ الخبرة :

سبق أن ذكرنا أن ساكن الريف يقوم بحكم مهنته بالحصـــول على معلومات وخبرات ومهارات عديدة تتصل بميادين شتى . والواقع أن

اتصال الفلاح بالطبيعة والنواحى البيولوجية يكسبه خبرة كبيرة فى هذه النواحى بعكس ساكن المدينة الذى قلما يتصل بشئون الحياة من جو وامطار وجفاف لان هذه الموضوعات لا تؤثر تأثيرا يذكر على عمله وانتاجه ولذلك فمعلوماته بشأنها ضعيفة . الا أن ساكن الريف بعيد عن المظاهر الحضارية المنتشرة فى المدن مما يجعل خبرته فى النواحى المادية والمظاهر الحضارية ضعيفة وهى الخبرة الغنية عند سكان المدن .

٦ ـ الرشاقة :

يرتبط بالموضوع السابق موضوع الرشاقة . فالمزارع فى مهنته لا يحتاج الى استخدام عدد كبير من العضلات فى وقت واحد وبالتالى لم تدرب عضلاته على التنسيق بينها . وطبيعة حياة الفلاح وعمله ليست كطبيعة عمل العامل فى المصنع اذ أن حياة ساكن المدينة تحتاج منه الى استعمال عضلات العينين والايدى والارجل والاذن وغيرها من عضلات جسمه للتنسيق بينها وبين حركات الآلات أو عند العبور فى ميدان مزدحم بالمواصلات والناس فى جميع الاتجاهات .

والتنسيق بين العضلات هو المقصود بالرشاقة . واذا كان الفلاح اقل رشاقة من ساكن المدينة (بتعريف الرشاقة أنها التنسيق بين استخدام العضلات فى وقت واحد) فان ذلك يرجع الى عدم وجود الفرص والدوافع التى تتطلب منه ذلك واذا لاحظنا رجل الريف عند بدء خدمته العسكرية والصعوبة التى يلاقيها فى التنسيق بين حركات يديه ورجليه مع غيره من المجندين الجدد . ثم لاحظناه بعد التدريب وهو يسير فى الاستعراضات العامة للاحظنا الفرق الواضح بين عدم الرشاقة فى المبدأ ومنتهى الرشاقة فى النهاية . فالمسألة اذا هى مسألة تدريب العضلات. ومثل هذا الجندى مثل اللاعب المبتدىء فى كرة السلة مثلا عندما نلاحظ عدم تناسق تصرفاته عند بدء تعلمه للعبة ثم نراه بعد التدريب مثالا للرشاقة .

هذه الصفة لسكان الريف هى التى تكسبهم هذا النوع من التصرفات الغريبة عند حضورهم الى المدينة هو ما يطلق عليه البعض صفة (اللخمة) .

٧ ـ مستوى المعيشة :

المعروف أن متوسط الدخل فى الريف أقل من المدينة سواء بمقارنة أجر العامل الزراعى بأجر العامل الصناعى أو بمقارنة ربح رأس المال المستغل فى الريف والمدينة . الا ان مستوى المعيشة فى المدينة على وجه العموم أعلى منه فى الريف نظرا لما يتوفر فى المدينة من ألوان الرفاهية والتسهيلات والخدمات العامة فهناك الطرق النظيفة ووسائل المواصلات السهلة الرخيصة وهناك المستشفيات المجانية أو عيادات الاطباء الاخصائيين قريبى المنال وغير ذلك من الاشياء التى تعود بالرفاهية والفائدة على سكان المدينة والتى لا تتوفر عادة وتكلف تكاليفا باهظة لسكان الريف ان أرادوا الحصول عليها .

٨ ـ الثقافة :

الريف جماعات أولية تتميز بالعلاقة الوطيدة بين أفرادها اى بعلاقة الوجه للوجه . والمجتمعات الريفية محدودة فى اتصالاتها اى أكثر عزلة من المجتمعات الحضرية .

فالريفى محدود الاتصال سواء فى كمية هذا الاتصال المحدود مع أبناء القرية المحيطين به أو فى نوع الاتصال لتشابه المهن وبساطة الحياة الريفية التى تحد موضوعات الاتصال ولا تعمل على تنويعها كماهو الحال فى المدينة . هذه العزلة النسبية وهذا الاتصال المحدود قد عاصر اسلوب المعيشة فى الريف لقرون طويلة وزاد من ارتباط الافراد بأسلوبهم المعيشى لذلك فان الثقافة الريفية من النوع المقدس اى بطىء التغيير المرتبط بعقائد الناس وتقاليدهم . ويلعب الشكل السلوكى دورا هاما فى مثل هذه الثقافات حيث يهتم الافراد بالشكل الذى يستجيب به أفراد المجتمع للمواقف المختلفة بصرف النظر عما اذا كان هذا الشكل السلوكى التقليدى يؤدى وظيفته بكفاءة او لا يؤديها .

ويقاوم أفراد المجتمع الريفى اى تغيير فى ثقافتهم مقاومة قوية اذا قورنت بمقاومة افراد المجتمع الحضرى . فالمجتمع الحضرى مجتمع تكثر فيه الاتصالات وثقافته متحررة سريعة التغيير ويهتم فيه الافراد بكفاية السلوك أكثر من اهتمامهم بشكله .

٩ - التدين :

ان طبيعة عمل سكان الريف تجعلهم اكثر قربا من الشعور بقوة الله سبحانه وتعالى . فتلك البذرة التى تتحول الى نبات ، وهذه الكائنات الحية من حشرات ونباتات التى تعيش حولهم ويعرفون دورة حياتها ، والجو والشمس والقمر والكواكب كل هذه الاشياء المحيطة بهم تذكرهم بالله سبحانه وتعالى : نضيف الى ذلك ان المزارع يشعر دائما واكثر من أى قائم بمهنة اخرى بحاجته الى مساعدة الله له فى عمله ، فالفلاح يقوم بواجبه ولكنه لا يستطيع أن يضمن محصـوله فربما أصابته حشرة أو مرض أو ربما أصابه جفاف أو صقيع .. فدرجة تمكنه من نتاج عمله أقل بكثير من الصانع مثلا الذى يتحكم الى درجة كبيرة فى انتاجه سواء فى شكل الانتاج أو فى الوقت الذى يتم انتاجه فيه . كل هذا جعـل سكان الريف أكثر تدينا من سكان المدينة الذين تخفى عنهم المظاهـر الحضارية المـادية ابداع الخالق سبحانه وتعالى فى خلقه للطبيعة .

وهـذا التدين القوى بين سكان المجتمع الريفى يرتبط بانتشار الاتكالية بينهم والاعتقاد والايمان العميق بالقضاء والقدر .

١٠ - الضبط الاجتماعى :

يعتمد الضبط الاجتماعى ، اى ضبط سلوك الافراد فى حدود المعايير والقيم المتعارف عليها فى المجتمع ، على نوعين من الضبط احدهما داخلى اى يعتمد على رقابة الفرد نفسه على سلوكه وتصرفاته والآخر خارجى اى يعتمد على رقابة الآخرين لسلوكه ومنعه من الانحراف . والضبط الداخلى يعتمد أكثر ما يعتمد على ما نسميه الضمير وعلى شخصية الفرد نفسه . أما الضبط الخارجى فهو اما ضبط اجتماعى غير رسمى كما فى حالة رقابة الاسرة أو الاصدقاء أو الجيران واما ضبط اجتماعى رسمى كما فى حالة رقابة رجال البوليس والهيئات الرسمية المسئولة عن حفظ الامن .

والضبط الاجتماعى السائد فى القرية قوى من النوع الداخلى اى النوع الذى يعتمد على رقابة الفرد على نفسه وعلى سلوكه وتصرفاته . فالتدين المعروف عن أهل الريف يقوى من هذا النوع من الضبط الاجتماعى

كذلك فان الريف جماعة أولية كما سبق أن قلنا ، أى جماعة تنتشر بينها علاقات الوجه للوجه ؛ والناس فى الريف يعرفون بعضهم البعض معرفة شخصية ، لذلك فان الضبط الاجتماعى غير الرسمى هو النوع القوى فى الريف وتلعب الشائعات (والودودة) دورا هاما فى الرقابة على سلوك وتصرفات الافراد ويعين على ذلك وضوح الشكل السلوكى فى الريف كما سبق أن أشرنا عند التحدث عن الثقافة الريفية . أما المجتمع الحضرى فتقل فيه العلاقات الاولية بين أفراده وبذلك تضعف أساليب الضبط الاجتماعى غير الرسمى مما يحتم ان تزداد فيه أساليب الضبط الاجتماعى الرسمى من بوليس ومباحث وقوات الامن المختلفة .

والواقع أن أساليب الضبط الاجتماعى غير الرسمى اكثر كفاءة ومقدرة فى الرقابة على سلوك الافراد من الاساليب الرسمية . وهى بجانب ذلك غير مكلفة من الناحية المالية بعكس أساليب الضبط الاجتماعى الرسمى التى تكلف أموالا بالرغم من كونها اقل كفاءة ومقدرة فى الضبط الاجتماعى فمقارنة قوات الامن (الضبط الاجتماعى الرسمى) فى قرية من القرى يقطنها ١٠٠٠٠ نسمة بقوات الأمن اللازمة لاحد احياء المدينة نلاحظ الفارق الكبير فى العدد والنوع بين الاثنين . فالقرية بها عدد قليل من الخفراء يرأسهم شيخ خفر بينما المدينة تخصص لمثل هذا العدد من السكان عدد أكبر من جنود البوليس وضباطهم وقوات من المخبرين ورجال المباحث . ومع ذلك فالانحراف السلوكى فى القرية اقل بكثير عنه فى المدينة . ويرجع ذلك بطبيعة الحال الى قوة الضبط الاجتماعى غير الرسمى فى القرية وضعفه فى المدينة .

١١ — المعايير او القوانين السلوكية :

من المناقشة السابقة للضبط الاجتماعى تستنتج ان المجتمع الريفى تختفى منه التقاليع وتضعف الموضة بينما تزداد المعايير التى هى من درجة السلوك الشعبى أو التقاليد والعرف . أما المدينة فيقوى فيها تأثير التقاليع والموضة ويقل فيها تأثير العرف التقاليد ويعوض هذا الضعف اهمية دور التشريع أو القانون الوضعى .

١٢ — الفوارق الاجتماعية :

نظرا لمعرفة الافراد الوثيقة لبعضهم البعض فان الطبقات الاجتماعية

محددة وواضحة وبالتالى فان الفوارق الاجتماعية بين الطبقات واضحة بعكس المدينة التى يصعب فيها تميز الطبقات الاجتماعية بوضوح حيث تتداخل هذه الطبقات وتقل الفوارق بينها .

ويقلل من حدة هذه الفوارق الاجتماعية فى الريف شعور الافراد بالانتماء الى مجتمعهم بدرجة قوية وكذلك المساعدات المتبادلة التى سنشير اليها فيما بعد .

١٣ — التعاون المتبادل :

تتميز العلاقات الاجتماعية فى الريف بأنها علاقات قوية بين الافراد تقوم على أساس معرفة وثيقة وتشابه فى المهنة والمسئوليات . وسكان الريف يعاونون بعضهم تعاونا تلقائيا فى مختلف المناسبات الزراعية أو الاجتماعية . فأهالى القرية يتبادلون الآلات ويستعيرونها من بعضهم كذلك فى المناسبات كحلول ضيوف على الاسرة أو فى الافراح وفى المآتم يتضح مدى التعاون الذى يشارك فيه الاهالى بعضهم فى معاونة الأسرة على الوفاء بالتزاماتها الاجتماعية فى هذه المناسبات . ومن المعروف أن هذا التعاون المتبادل لا يتوفر فى المدينة الا فى بعض الأحياء الشعبية ذات الطابع الريفى أو من أسر محدوده أتاحت لها الظروف ان تتعارف معرفة وثيقة ببعضها لفترة طويلة من الوقت اما فيما عدا ذلك فان الأسر فى المدينة تكاد لا تتعارف على جيرانها ان لم تكن لا تتعارف فعلا .

اشكال الاستيطان الريفى

يعيش سكان المجتمع الريفى فى مجتمعاتهم الريفية حيث تتخذ هذه المجتمعات اشكالا مختلفة من اشكال الاستيطان وأهم اشكال الاستيطان الريفى هى المزرعة المنفردة ، والقرية عبر الطريق ، والقرية الخطية ، ويتفرع من هذه الاشكال عدد من الأشكال الأخرى وتتأثر اشكال الاستيطان الريفى بعدة عوامل من اهمها حجم الملكيات الزراعية وظروف حيازة الأراضى الزراعية كما تتأثر بالعوامل الجغرافية والطبيعية فى المجتمع وفيما يلى عرض لهذه الأشكال من اشكال الاستيطان الريفى :

١ — المزرعة المنفردة

وفى هذا الشكل من اشكال الاستيطان يبنى المزارع منزله على أرض

مزرعته نفسها ويكون حول المنزل عادة اية منشآت اخرى يحتاج اليها كالمخازن والحظائر وعدد قليل من بيوت العمال المساعدين . وينتشر هذا الشكل من اشكال الاستيطان بنوع خاص فى البلاد التى تكون مساحات الملكية الزراعية بها كبيرة . مثل بعض بلاد أمريكا الشمالية وامريكا الجنوبية .

وهذا الشكل من اشكال الاستيطان مزاياه كما ان له عيوبه . اما مزاياه فهى :

(ا) أن المزارع يعيش فى وسط مزرعته بحيث يوليها اشراف بشكل دائم ومباشر .
(ب) نظرا لوجود منشآت المزرعة على أرضها فان مصاريف النقل تقل فى هذا الشكل من اشكال الاستيطان بدرجة كبيرة .

أما عيوب المزرعة المنفردة فهى :

(ا) العزلة : فسكان المزرعة المنفردة يعانون من عزلتهم وبعدهم من متعة الاجتماع والاتصال بالآخرين .

(ب) ارتفاع نفقات المرافق : فان فى مثل هذه المزرعة تزداد نفقات اية مرافق تدخل اليها كالكهرباء والمياه حيث يتكفل صاحب المزرعةوحده بجميع تكاليف الانشاء والادارة والصيانة .
(جـ) ارتفاع نفقات الخدمات العامة : حيث تواجه الدولة صعوبة كبيرة فى نشر الخدمات العامة لتباعد المساكن والناس عن بعضهم لمسافات طويلة وقد واجهت الولايات المتحدة الامريكية مثلا مشكلة انشاء مدارس لابناء الريف فى هذه المناطق وعمدت الى انشاء مدرسة الفصل الواحد لتكون فى متناول وصول أبناء الأسرة المحيطة ثم ظهرت فكرة المدارس المجمعة التى تستعين بعدد من السيارات لجمع الطلبة والطالبات من مسافات بعيدة . وكلا النظامين غير مرضى تماما من وجهة نظر القائمين عليه سواء من وجهة استفادة الطلبة أو راحتهم أو من وجه ارتفاع التكاليف كما ان توفير العلاج والمستشفيات وأماكن الترويح والمكتبات العامة وغير ذلك من الخدمات يكلف تكاليف كثيرة لاعتماده الاساسى على الوحدات المتنقلة .

٢ - القرية عبر الطريق

وهى محاولة للاحتفاظ بمزايا المزرعة المنفردة مع الاقلال من عيوبها . ففى هذا الشكل من أشكال الاستيطان يعمد المزارعون الى بناء منازلهم ومنشآتهم على أرضهم فى المكان الذى تلتقى فيه مع املاك غيرهم من الجيران . فيتجمع بذلك عدد من المنازل فى مجتمع متقارب وهذا يخفف بدون شك من قسوة الوحدة ويزيد من متعة الاجتماع بالآخرين ، كما يقلل من نفقات المحافظة على الامن ومن نفقات ادخال بعض التسهيلات المنزلية كالكهرباء والماء فى منازلهم .

ويوجد هذا الشكل فى مجتمعنا الريفى العربى فى قرية ابشان مركز بيلا بمديرية كفر الشيخ فقد وزعت الاراضى فى هذه الناحية على عدد من خريجى كليات الزراعة فشيدوا منازلهم عند التقاء حدود اراضيهم بحيث تجمع فى كل منطقة أربعة أو خمسة بيوت للملاك بجانب منازل العمال ومنشآت المزرعة .

٣ - القرية الخطية

وهذا الشكل من اشكال الاستيطان يعتبر من اقدم الاشكال حيث كانت القرى تبنى على طول طريق مواصلات هام كالانهار فتأخذ شكلا خطيا . وعاد هذا الشكل الى الظهور حديثا بعد انتشار طرق المواصلات فى أنحاء العالم فعمد المزارعون الى بناء منازلهم على ارضهم قريبا من طريق المواصلات . ويعمد معظم المزارعين الى الاستفادة من السيارات المارة فى هذه الطرق بتوفير بعض الخدمات لها كانشاء طلمبات البنزين أو المطاعم واحيانا أماكن للنوم لتكون موردا جانبيا للمزارع يزيد من دخله .

وهناك بعض قرى مصر التى يعرف عنها هذا الشكل كقرية الشوبك الشرقى مركز الصف بمديرية الجيزة التى تمتد مساكنها على شاطىء النيل متخذة شكلا خطيا .

القرية

وهو شكل الاستيطان السائد فى ريفنا العربى وفى معظم انحاء آسيا وافريقيا واوربا وفى هذا الشكل يعيش الناس في منازلهم المتجاورة في

قريتهم ويخرجون من قريتهم فى الصباح ليذهبوا الى حقولهم ويعودوا منها الى قريتهم فى المساء . بمعنى آخر فالقرية مكان للسكن يبعد عن الحقول . وقد تبعد القرية عن مزارع البعض لمسافات طويلة قد تبلغ احيانا عدة كيلو مترات .

وللقرية مزاياها كما أن لها عيوبها وهى تقريبا عكس مزايا عيوب المزرعة المنفردة فمن مزايا القرية :

(ا) التمتع بالحياة الاجتماعية والاتصال بالآخرين .
(ب) انخفاض تكاليف التسهيلات المنزلية كانشاء المرافق العامة كالماء والاضاءة .
(جـ) انخفاض تكاليف تقديم الخدمات العامة كالمدارس والمستشفيات والمحافظة على الامن .

أما عيوبها فهى :

(ا) بعد المزارع عن مزرعته مما لا يتيح له اشرافا دائما على عمله .
(ب) ارتفاع تكاليف النقل لبعد المزرعة عن المنشآت والمخازن .

الجزء الثالث

تنمية المجتمع

- نحو سياسة عامة لتطوير الريف المصرى
- تنمية المجتمع المحلى
- الخطوات الأساسية لتنمية المجتمع
- العمل مع المواطنين فى المجتمع
- تثقيف الكبار

نحو سياسة عامـــة

لتطـــوير الريف المصرى

قصة الاصلاح الريفى فى مصر ليست قصة جديدة ، فهى ترجع فى عصرها الحديث الى أوائل القرن الحالى :

- ففى عام ١٩٠٨ بدات حركة الجمعيات التعاونية .
- وفى عام ١٩١٨ بدات حركة المجالس القروية بصورتها القديمة.
- وفى عام ١٩٤١ بدات حركة المراكز الاجتماعية .
- وفى عام ١٩٥٢ بدأ مشروع الاصلاح الزراعى .
- وفى عام ١٩٥٤ بدات حركة الوحدات المجمعة .
- وفى عام ١٩٦٠ بدات حركة المجالس القروية بشكلها الجديد .
- وفى عام ١٩٦٥ بدأ تكوين مجتمعات ريفية مستحدثة نتيجة لانشاء السد العالى .

وبين هذه الحركات الكبيرة ظهرت مشروعات أخرى للاصلاح الريفى كمشروع القرية النموذجية فى بهتيم ، ومشروع جمعيات الاصلاح الريفى، ومشروع مركز التنظيم والتدريب بقليوب ، ومشروع الهيئــة المصرية الامريكية لاصلاح الريف ، ومشروع مديرية التحرير ، الوحدات الصحية والمدارس الريفية ، ووحدات الصناعات الريفية وقوافل الثقــافة ... الخ ..

من هذا نرى أن قصة اصلاح الريف ليست جديدة على مصر ، فقد شحذت البلاد جهدها أكثر من مرة وقامت بعديد من المحاولات الجدية ومع هذا لم يتغير الحال كثيرا أو بالقدر الذى كنا نأمله .

مجهودات الاصلاح الريفى فى مصر والعالم : قبل الحـــديث على « ما يجب أن يكون » قد يكون من الاوفق تصنيف مجهودات الاصلاح

الريفى فى مصر والعالم حتى يتمكن القارىء من استيعاب الاتجـاهات الاصلاحية المختلفة :

(١) **مجهودات الخدمة المفردة** : تبقى ملكية الارض كما هى أو يعاد توزيعها بقانون ، وتقدم الخدمات منفردة كل منها قائم بذاته ومثال ذلك الوحدات الزراعية والوحدات البيطرية والوحـدات الصحية والمدارس الريفية ووحدات الصناعات الزراعية والجمعيات التعاونية ... الخ فى جميع بلاد العالم .

(ب) **مجهودات الخدمة المجمعة** : تبقى ملكية الارض كما هى أو يعاد توزيعها بقانون ، وتقدم الخدمات مجتمعة فى مكان واحد بغرض تنسيق الجهود الخدمية ومثال ذلك الوحدات المجمعة والمراكزالاجتماعية فى مصر ومشروع تجميع القرى فى زامبيا .

(جـ) **مجهودات العون الذاتى** : تبقى ملكية الارض كما هى أو يعاد توزيعها بقانون ، ويقوم المواطنون بجهود ذاتية لاصلاح حال مجتمعاتهم سواء كان ذلك بمساعدة خارجية أو بدون مساعدة . ومن البلاد التى اخـذت بهذا الاتجاه فى الاصلاح الريفى جميع البـلاد الافريقية التى استعمرتها بريطانية وكذا كثير من البلدان الآسيوية .

(د) **تدعيم الجهود الحكومية** : تقـوم بعمليات الاصـلاح الريفى بأشكالها فى هذه الحالة حكومة مركزية قوية تمتد اذرعها الى الريف ، ولكى يقبل المواطنون على هذه الخدمات ، ويتفهمون مغزاها ، ويتعاونون مع الحكومة فى تحقيق اهدافها ، تنظم الحكومة حملات اعلامية كبيرة ومجهودات ارشادية واسعة توضح فيها طرق الاستفادة من تلك الخدمات .. ومن أمثلة البلاد التى تنتهج هذا النهج جميع البلدان التى استعمرتها فرنسا سواء كان ذلك فى أفريقيا أو آسيا .

(هـ) **الاصلاح الريفى عن طريق المعيشة التعاونية** : يعتمد هـذا الاتجاه الاصلاحى على اعادة شكل الحياة الريفية بأكملها وجعل الملكية على المشاع بين القائمين على العملية الانتاجية (أو ملك الحكومـة فى بعض الاحيان) وتوجيه الجهود الانتاجية بجميع مراحلها على هذا الاساس . ومن البلاد التى أخذت بهذا الاتجاه كثير من البلدان النامية .

(و) انشاء مجتمعات جديدة : لجأت كثير من البلدان فى جميع أنحاء العالم الى هذا الاتجاه الاصلاحى لتوسيع الرقعة الزراعية وارتبط هذا الاتجاه فى اغلب الاحيان بانشاء خزانات مياه كبيرة بهدف السيطرة على مياه الانهار . ونتيجة لهذا التوسع فى الاراضى الزراعية انشأت الحكومات قرى جديدة بنظم جديدة تختلف من مكان الى مكان حسب فلسفة الاصلاح فى المجتمع . ومن امثلة البلدان التى لجأت الى هـــذا الاتجاه الولايات المتحدة الامريكية وروسيا وغانا والسودان ومصر .

ويجدر بنا هنا أن نشير الى أن جميع هذه الاتجاهات فى الاصـــلاح الريفى تتداخل مع بعضها فى أغلب الاحيان بدرجات متفاوتة وتظهر بصورة مركبة ما تم من عمليات الاصلاح الريفى فى مصر . وهذا لا يمنع طبعا من أن يكون هناك تركيز على اتجاه اصلاحى معين .

ومع نجاح بعض هذه المجهودات الاصلاحية بدرجة ملفتة للنظر فى البلدان التى قامت فيها الا انه من الصعب الحكم مسبقا على امكانية نجاح اتجاه معين فى الاصلاح الريفى فى مجتمع ما الا بعد تجربته والتأكد من تمشيه مع الثقافة المحلية . حتى فى نفس الدولة فان النجاح الذى يصيب مشروعا بعينه لا يعنى بالضرورة نجاح نفس المشروع فى باقى أجزاء الدولة وذلك لاختلاف الثقافات حتى فى الدولة الواحدة .

ماذا نقصد بتطوير الريف : يهتم المختصون فى الزراعة والتجـارة والصناعة والتعاون والتعليم والصحة والاسكان الخ .. بقضايا تطوير الريف ، فما هو القصد اذا من اثارة موضوع تطوير القـرية اذا كان لكل قطاع من تلك القطاعات وزارة خاصة به تقوم على شئونه فى مصر كلها حضرها وريفها .

القصد هنا هو تركيز الجهود لتوفير الجو المناسب لحدوث تغيير مرغوب فى حياة المجتمع الريفى من النواحى الاقتصـــادية والاجتماعيـــة والعمرانية والسياسية بشكل متكامل ومتوازن وأصيل .

المشكلات التى تعوق عملية تطوير الريف : مع وجود الوزارات التى ترعى قطاعات التنمية المختلفة ـ هناك عدد من المشكلات التى تخرج عن

اطار عمل كل وزارة على حدة والتى تؤدى الى تعطيل عملية التطوير المرغوبة ومن امثلة هذه المشكلات ما يلى :

١ - عدم الاستفادة من الخبرات السابقة بقدر كاف : مرت مصر بعديد من الخبرات لتطوير المجتمعات الريفية منذ بداية القرن الحالى (التعاون - تجربة بهتيم - المراكز الاجتماعية - جمعيات الاصلاح الريفى تجربة قليوب - الوحدات المجمعة - المجالس القروية) ولسوء الحظ لم تسجل عمليات التنمية فى هذه المجهودات بطريقة تؤدى الى تراكم الخبرة للاستفادة منها فى المجهودات اللاحقة ، واقتصر الامر على نقلها من جيل الى جيل عن طريق الشرح والنصح اثناء الاجتماعات والمحاضرات .

٢ - عدم الثقة فى قدرة القطاعات على التنسيق والتعاون فيمابينها: ادى فشل بعض الخبرات السابقة فى ايجاد جو من التعاون بين قطاعات اختلال التوازن بين مجهودات التنمية الاجتماعية من جانب ومجهودات الخدمة المختلفة الى الايمان لدى الكثيرين بعدم جدوى المحاولة فى هذا المجال مما ادى الى نكسة فى عمليات الاصلاح وتحويلها عن المنهج التكاملى .

٣ - اختلال التوازن بين شقى التنمية : أدى نبذ المنهج التكاملى فى الاصلاح الى أن سار كل قطاع فى طريقه بالسرعة التى تتراءى له الى التنمية الاقتصادية من جانب آخر ، وأدى بالتالى الى ظهور مشكلات مثل مشكلة سواقط التعليم ، ومشكلة استنزاف الريف من عناصره المتعلمة ومشكلة انخفاض الكفاءة الانتاجية لجميع فئات المجتمع .. الخ .

٤ - عدم وجود أى سياسة عامة متفق عليها لتطوير الريف : ادى نبذ المنهج التكاملى الى التلكؤ فى الاتفاق على سياسة متكاملة لتطوير الريف تعمل بمقتضاها كل القطاعات عند وضع سياستها القطاعية وترجع اليها عند وضع خطتها القومية .

٥- التردد فى توسيع سلطات المجالس القروية : يعتمد الحكم المحلى فى أساسه على فهم وتقدير واقتناع كامل باستراتيجية العمل اللا مركزية على المستوى المحلى . ويبدو أن هذا الفهم والتقدير والاقتناع يحتاج الى تدعيم على مستوى المحافظات بعد ان تم بنجاح كبير على المستوى القومى فاللامركزية لاتعنى نقل أجزاء كبيرة من السلطة من القاهرة

الى عواصم المحافظات ولكنها تعنى نقل اجزاء كبيرة منها الى القرى أيضا .

٦ - **عدم جدية اشراك الفلاحين فى الاصلاح :** على الرغم من التركيز الذى وضعته الثورة على أهمية اشراك العامل والفلاح فى عمليات الاصلاح يبدو أن الفكرة لم تتأصل بعد ولا زال الكثير ينكر على الفلاح حقه فى السيطرة على مقدراته ويرى فى اشتراكه مساس بمكانة المتعلمين والمهيمنين على الامور فى أنحاء البلاد .

٧ - **عدم اقتناع الفلاح بالمشروعات الجديدة :** أدى التلكؤ فى تطبيق اللامركزية الكاملة ، والتردد فى اشراك الفلاحين فى تخطيط المشروعات بصورة جدية ، الى ابتعاد بعض المشروعات من واقع القرية المصرية من جانب والى عدم اقتناع الفلاح بجدوى كثير من المشروعات الصالحة من جانب آخر ، مما أساء الى كثير من مجهودات التنمية الريفية فى البلاد .

٨ - **المغالاة فى المبانى والمنشآت :** تكاد تكون مصر هى البلد الوحيد بين البلدان النامية التى تولى المبانى والمنشآت اهتماما زائدا لا يتكافأ مع الامكانيات المادية المتاحة مما يعرقل عمليات التنمية بصورتها العامة ويخرجها عن هدفها المقصود .

٩ - **الاسراع فى العمل أكثر مما يحتمل الموقف :** أدى انعدام التكافؤ بين مجتمعى الريف والمدينة ، واهتمام الحكومة بتوفير الحياة الكريمة لاهل الريف ، الى رغبة ملحة لدى المسئولين للنهوض بالقرية المصرية عن أقرب الطرق وأسرع السبل مما أدى الى اغفال غير مقصود للمبادىء الاساسية لتنمية المجتمعات الريفية وللاصول العلمية التى يجب مراعاتها فى مثل هذه المشروعات .

١٠ - **انعدام الوعى الشعبى العام باهمية تطوير الريف المصرى لبناء المجتمع الاكبر :** ينادى كثير من المتعلمين باهمية رفع المستوى المعيشى للفلاحين دون أن يدور بخلدهم شيئا عن التضحيات المؤقتة اللازمة لهذا التطوير ، فتحويل قدر من الاستثمارات للريف يعنى بالضرورة حرمان اهل المدن مؤقتا - من جزء من الرفاهية التى يتمتعون بها ، فكيف يمكن للميزانية العامة ان توائم بين الحاح سكان المدن لاصلاح الطرق والمواصلات والتليفونات ورفع مستوى الخدمات الصحية والتعليمية وتعديل الكوادر

المالية للموظفين والعمال ... الخ ـ كيف يمكن للميزانية العامة أن توائم بين هذا كله وبين تخصيص قدر مناسب من المال للنهوض بأكثر من ٤٠٠٠ قرية مصرية فى نفس الوقت .

ما يجب مراعاته فى أى مشروع لتطوير القرية المصرية

يتفق اغلب العاملين فى مجال التنمية الريفية على وجوب مراعاة القواعد الاساسية التالية عند التصدى لعمليات تطوير المجتمع القروى :

١ ـ **وجوب اتباع المنهج العلمى** : لكى يمكن تحديد مدى النجاح ومدى الفشل والتعرف على اسباب هذا وذاك لابد من اجراء مسوح قبلية وبعدية وبعض الابحاث . ولكى يمكن اكتساب الخبرة من الجهد المبذول لا بد من تسجيل وتحليل ما أتخذ من اجراءات وما نتج من نتائج .

٢ ـ **وجوب العمل فى اطار خطة عامة متكاملة لتنمية الريف والحضر:** المجتمع المصرى مجتمع متكامل ولا يمكن تناول جزء منه بالاصلاح الا فى اطار خطة شاملة للاصلاح للمجتمع الاكبر ـ الريف والحضر والصحراء ـ فالعلاقة بين الريف والحضر علاقة عضوية لا يمكن أن يعيش أيهما دون الآخر ، كما أن الصحراء هى الملجأ الوحيد لاى امتداد ذو قيمة فى الرقعة الزراعية .

٣ ـ **وجوب تكامل الخطة وتوازن محتوياتها** : لتفادى ظهور مشكلات قد تنجم عادة عن التفاوت فى سرعة التغير فى مختلف القطاعات لابد من اعداد خطط تفصيلية تعالج مختلف المشكلات وتتناول كل القطاعات ، بشكل منسق ومتكامل .

٤ ـ **وجوب اشراك المواطنين** : لكى تعكس الجهود المبذولة احتياجات المواطنين ، ولكى نتأكد من واقعيتها وجديتها وأصالتها ، ولكى يقتنع القرويون بجدواها ، ولكى يستفيد هؤلاء من الخبرة عن طريق العمل ، لابد من اشراكهم اشراكا كاملا وفعليا فى كل مرحلة من مراحل العمل سواء كانت تخطيطية أو تنفيذية أو تقويمية ، ولا بد من التوسع فى اللامركزية وتدعيم الادارة المحلية .

٥ — **وجوب الاهتمام بالتنمية الاقتصادية :** لكى تقـابل مشروعات التنمية الاحتياجات الاساسية للمواطنين لابد من اعطاء مشروعات التنمية الاقتصادية — الزراعية والتجارية والصناعيـــة — أولوية على باقى المشروعات .

٦ — **مراعاة قلة التكاليف :** لكى تتمكن الدولة من مقابلة احتياجات الريف المصرى الاساسية بقدر من الجدية والعـدالة ، لابد من مراعاة البساطة وقلة التكاليف فى كل مشروع من المشروعات وعدم الالتجاء الى البناء الا فى أضيق الحدود .

٧ — **السير بالسرعة التى يتحملها المواطنون :** لكى يتمكن القرويون من ملاحقة مشروعات التنمية والاشتراك فيها ومؤازرتها لابد من السير بالسرعة التى يتحملها المواطنون دون ابطاء مخل أو اسراع يفوت على المواطنين فرصة الاشتراك المجدى .

٨ — **وجـوب اشتراك المختصين فى مختلف المشروعات :** لكى تتم عمليات التنمية الريفية بما يعود بالنفع الحقيقى على الفـلاح لابد من اشتراك المختصين فى مجالات الزراعة وتربية الحيوان والصناعات الريفية والجمعيات التعاونية والتعليم والصحة ... الخ فى مشروعات التنمية كل فى اختصاصه .

٩ — **ضرورة التنسيق بين المجهودات المبذولة :** لكى يتم التعاون بين مختلف الهيئات العاملة فى مجال تطوير القرية ، ويقـل تداخل البرامج وتكرارها ، لابد من تدعيم أجهزة التنسيق على مختلف المستويات وعلى رأسها المجالس القروية .

١٠ — **وجوب توسيع مسئوليات مجالس القرى :** المجلس القروى هو أساس التنمية فى أى قرية ، أو على الاقل هذا هو ما يجب أن يكون ، ولن يكون لهذا المجلس اثر فى القرية الا اذا اتسعت مسئولياته ولن يتأتى ذلك الا بمزيد من اللامركزية .

١١ — **ضرورة ايجاد اهتمام شعبى عام باستراتيجية العمل فى الريف :** لكى يحتل العمل فى الريف المكانة التى يستحقها ، ولكى تحصل القرية المصرية على بعض حقها . لابد من اذكاء الوعى بحقوق الريف واقناع أهل الحضر بالدور الذى تقوم به القرية فى بناء المجتمع المصرى .

تنمية المجتمع المحلى :

* استطرادا لما سبق يمكن تعريف تنمية المجتمع المحلى بانها العملية التى يتم عن طريقها احداث تغير متكامل ومقصود فى المجتمعات المحلية أساسا فى حدود الاطار العام لخطة الدولة */

أى انها العملية التى يمكن بها ايجاد تعاون بين الزراعى والطبيب والمعلم والمهندس والاجتماعى ورجل الدين بالاضافة الى جهد المواطنين المحليين لاحداث تغييرات مرغوبة فى المجتمع المحلى .. أى المجتمع المستحدث فى حالتنا هذه . وينحصر دور المشرف على عمليات التنمية فى المساعدة على خلق الجو الملائم لكى تنشط وتتفاعل كل القوى الاصلاحية فى المجتمع حتى تصل الى اقصى ما تسمح به قدرات ذلك المجتمع وامكانياته ، وبقول آخر ينحصر دور المشرف على عمليات التنمية فى مساعدة جميع المشتركين فى تلك العمليات على بذل جهودهم بطريقة أكثر كفاءة وفاعلية ومعاونتهم على التغلب على الصعوبات التى يقابلونها .

ولا يقتصر تكامل عمليات التنمية على مجرد ايجاد تعاون بين الجهات المشتركة فى التجربة ، كما لا يقتصر التكامل أيضا على مجرد التنسيق (أى منع التكرار والتداخل) بين الجهود المبذولة فى التجربة .

وانما المقصود بالتكامل هو صهر تلك الجهود فى بوتقة واحدة أى جعلها جهدا واحدا يقوم به فريق من العاملين لاعدد من الافراد — وبهذا المفهوم يمكن القول بأن أهمية التنمية فى المجتمعات المستحدثة ترجع أساسا الى ما يلى :

١ — مرور المجتمعات المستحدثة بفترة انتقال سريعة : تمر المجتمعات المستحدثة بفترة انتقال سريعة لم تعهدها من قبل ، ومن طبيعة التغير السريع انه يؤدى الى نمو غير متوازن بين قطاعاته المختلفة سواء كانت اجتماعية أو اقتصادية ، حضرية أو ريفية .

ويؤدى هذا التفاوت فى النمو عادة الى عدم تكامل المجتمع وانسجامه والى ما يسمى بالتقاعس الثقافى الذى هو أساس لكثير من المشكلات فى مجتمعنا .

٢ ــ **تعدد أجهزة الاصلاح** : يدخل المجتمع الحديث عدد من الهيئات الاصلاحية كل منها يحاول أن يدفع عملية التغير بالوسيلة التى تروقه والى الوجهة التى يعتقد أنها أكثر فاعلية . وان التنسيق بين هذه الجهود وتوثيق العلاقة بينها واجب أساسى من واجبات عملية التنمية المتكاملة.

٣ ــ **انخفاض مستوى الخدمة** : ومع كثرة المجهودات المبذولة للاصلاح فان اغلبها فى حاجة شديدة الى التدعيم الفنى والمالى ، وعمليات التنمية تعمل على مؤازرة تلك الخدمات بما يجعلها أكثر فاعلية .

٤ ــ **سلبية المواطنين** : يتصف اغلب مواطنينا عامة ــ وفى المجتمعات المستحدثة خاصة ــ بالسلبية ، فهم ينتقدون الاوضاع ويقللون من قيمة المجهودات المبذولة ، ويقصرون جهدهم على تقديم الطلب تلو الطلب دون محاولة جدية من جانبهم الى حل مشكلاتهم بأنفسهم ، ومقاومة هــذا الوضع هدف أساسى من أهداف تنمية المجتمع .

٥ ــ **استقرار المجتمعات المستحدثة** : تتطلب عمليــة انشاء قرى جديدة نقل مواطنين من بيئات ريفية متعددة وتسكينهم فى مجتمع واحد جديد ، ويحتاج هؤلاء الريفيون الى تكيف مع انماط الحيــاة فى المجتمع الجديد ومع طبائع وعادات وتقاليد جيرانهم الجدد . هذه العملية تحتاج الى أخصائى التنمية ليساعد سكان القرية المستحدثة على التأقلم للحياة الجديدة بأيسر السبل .

أهداف تنمية المجتمع :

مما سبق نرى أن عملية التنمية لا يقصــد بها تكرار المجهودات الموجودة فى القرية تحت اسم جديد أو القيام بخدمات مباشرة يمكن أن تقوم بها هيئات أخرى وانما القصد هو ســد الثغرات التنموية التى لا توليها الهيئات القائمة أهمية كافية . وفى اطار هذا المفهوم لعمليات التنمية يمكن حصر مجهودات الفريق المسئول عن تنمية المجتمع فى اربع عمليات رئيسية :

١ ــ **التخطيط المتكامل :**

يهتم كل قطاع بالتخطيط فى قطاعه ، أما التخطيط المتكامل فهو من مسئوليات الفريق المشرف على التنمية .

٢ ـ التنسيق بين المجهودات المبذولة :

يهتم كل قطاع بخدماته الخاصة دون بذل جهد خاص للتنسيق مع القطاعات الاخرى ، اما فريق التنمية فعمله الاساسى هو العمل المنسق المتكامل .

٣ ـ تدعيم المجهودات المبذولة :

يهتم كل قطاع بالخدمة المنوط بها ، أما جهاز التنمية فيهتم بتدعيم كل الخدمات عن طريق التدريب والبحوث والتقييم وجمع الاحصاءات والتمويل واجراء التجارب الرائدة ... الخ .

٤ ـ اذكاء الوعى الشعبى العام :

ينسى كثير من المسئولين عن العمل القطاعى اهمية وجود رأى عام يؤازر مجهوداتهم ، وتنمية المجتمع تعتبر هذا أساسا هاما للتنمية وتبذل جهدا خاصا ومستمرا لذلك ، بل وتغير من استراتيجيتها اذا ما وجدت أعتراضا على أساليبها ومنجزاتها .

مبادىء تنمية المجتمع :

المقصود بالمبادىء فى تنمية المجتمع هو القواعد العامة التى يجب مراعاتها عند العمل مع المواطنين فى المجتمعات المحلية . ويختلف المبدأ عن الاسلوب فى أن الاول هو القاعدة العامة وأن الثانى هو الطريقة التى يمكن بها تطبيق هذه القاعدة العامة فى الموقف المعين . اى أن المبدأ شىء عام يمكن أن يطبق بأساليب عديدة فى مجتمعات مختلفة . بهذا الفهم يمكن حصر أهم المبادىء العامة لتنمية المجتمع فيما يلى :

١ ـ الاستثارة :

يمكن أن تبدأ عملية استثارة المواطنين للبدء فى عمليات التنمية من داخل المجتمع أو من خارجه ، أى انهــا قد تبدأ كنتيجة للشعور بعدم الارتياح والرغبة فى الاصلاح من جانب بعض المواطنين المحليين ، كما انها قد تبدأ كنتيجة لتدخــل بعض المواطنين الخارجين عن المجتمع بغرض استثارة اهتمام المواطنين المحليين للبدء فى الاصلاح « وفى كلتا الحالتين لن تبدأ عجلة التنمية فى السير الا اذا توفر شرطين اساسيين :

(أ) شعور عدد كاف من المواطنين المحليين بعدم الرضا عن الاحوال الموجودة ، ورغبتهم فى تغيير الاوضاع .

(ب) قدرة هؤلاء المواطنين على تنظيم صفوفهم للعمل ، وعدم الاكتفاء باظهار السخط بالنقد والكلام السلبى .

٢ — اشتراك الاهالى :

وسواء كانت هذه الاستشارة من الداخل أو الخارج ، فان اشتراك المواطنين بكل نوعياتهم فى عملية تنمية المجتمع من بدئها وفى كل مراحلها، مبدأ أساسى ، وذلك لثلاثة أسباب :

(أ) يتعلم المواطنون كيف يحلون مشاكلهم محليا اذا ما مارسوا عملية الاصلاح ، فيجتمعون ويناقشون ويقررون ويجمعون المال وينفذون ويقيمون ، كل هذا يخلق منهم — بمرور الوقت — مجتمعا أكثر قدرة على اصلاح حاله والاهتمام بأمر نفسه .

(ب) يؤدى اشتراك المواطنين فى عمليات الاصلاح على مساندتهم لتلك العمليات والاهتمام بها ومؤازرتها مما يجلعها أكثر ثباتا وأعم فائدة .

(جـ) يكون المواطنون المحليون فى العادة أكثر حساسية من غيرهم لما يصلح لمجتمعهم وما لا يصلح ، فاشتراكهم فى عمليات الاصلاح ورضاءهم عما يجرى ، يكون بمثابة « المؤشر الحساس ، الذى يوجه القائمين بالاصلاح الى المشروعات المناسبة والوسائل الملائمة ، فيسير هؤلاء حثيثا اذا ما لمسوا استجابة من الأهالى ، ويتراجعون أو يؤجلون أو يزيدون الشرح اذا ما لمسوا من الاهالى ترددا أو نفورا » .

٣ — حق تقرير المصير :

من حق المواطنين اقرار كل المشروعات الاصلاحية التى تبدأ فى مجتمعاتهم ، على أن الامر الذى يدور فى الذهن ويدعو للتساؤل ، هو مدى امكانية وصلاحية آخذ رأى المواطنين على المستوى المحلى فى جميع المشروعات . هل نسأل أهالى القرية مثلا ونتأكد من موافقتهم قبل بدء اى مشروع حكومى كالمدرسة أو الوحدة الزراعية أو الوحدة المجمعة أو المستشفى ؟ أم ان هذه المشروعات من الأهمية بمكان ، وان حاجة الشعب اليها واضحة ولذا فان الاسراع فى تعميمها واجب .

والواقع اننا أمة قد اختارت التوجيه منهاجا لها فى الاصلاح ، اى أننا تبينا مبدأ الاخذ برأى الخبراء والمختصين والحصـول على موافقـة المواطنين فى مجالس اعلى من المجالس المحلية فى القرى والمدن . ولا يعنى هذا اهمال المواطنين المحليين وعدم الاخذ برأيهم فى المشروعات المحلية ، بل أن الكاتب يرى أن هناك عدة مستويات من المجالس وأن توزيع المشروعات بين تلك المستويات أمر يرجع للسياسة العامة فى الامة من حيث التوجيه وعدم التوجيه ، فالمشروعات العامة وذات الاهميـة الكبرى كالتصـنيع والسد العالى والطرق العامة والجامعات ، من حـق مجلس الشعب ، والمشروعات الاصلاحية كالمدارس الثانوية والفنية والوحدات المجمعة والمستشفيات والوحدات الزراعية والبيطرية والوحدات الاجتماعية من حق مجالس المحافظات ، والمشروعات المحلية كاصـلاح طرق القـرية والمستوصفات وانشاء الاجران والاسواق المحلية ، كلهـا من الشئون الخاصة بالقرية ، ومن حق المجلس القروى أو جمعية التنمية ان يقرروا فيها ما يشاؤن .

وبهذا نرى أن من واجب مشرف التنمية فى المجتمع المحلى أن يسعى لتوفير الجو الملائم لقيام تعاون بين المواطنين والمشروعات الآتية من أعلى ، كما يجب عليه مساعدة المواطنين على الادلاء بآرائهم والتقدم بمشروعاتهم للمجالس القروية وجمعيات تنمية المجتمع .

٤ — القبول والتوجيه :

يجب أن يقبل مشرف التنمية الافراد والجماعات والمجتمعات كما هم لا كما يظن انهم يجب أن يكونوا ، فلكل فرد أو جماعة أو مجتمع صفاته ومميزاته وظروفه التى تختلف عن صفات ومميزات وظروف الافـراد والجماعات والمجتمعات الاخرى ، ومن الواجب اعطاء الفرصة لكل منهم كى ينمو حسب احتياجاته وقدراته وظروفه لا أن يتشكل حسب ما يريد المشرف . على أن قبول مبدأ « التوجيه » فى مجتمعنا العربى — كما أشرنا سابقا — يجعل من حق المشرف التدخل بقدر فى شكل المجتمع فى حدود الخطة العامة المرسومة للمجتمع الاكبر ، فيوجه الهيئات الاصلاحية فى المجتمع المحلى الى الاهتمام بالانتاج مثلا ويدعو للتعاون مع أجهزة الادارة المحلية والاهتمام بالحركة التعاونية ، الى غير ذلك من الاتجاهات والنظم التى لم يشترك فى وضعها المجتمع المحلى وانما نادت بها الدولة ككل ،

ومعنى هذا أن الاوضاع فى مجتمعنا تتطلب « القبول » و « التوجيه » فى نفس الوقت ، تتطلب قبول المشرف للاوضاع فى بدء العمل بالمجتمع حتى يطمئن الى انه قد اكتسب ثقة الناس وقويت علاقته بهم ، كما تتطلب القبول مع التوجيه فى حدود الخطة الاصلاحية العامة للدولة بعد مرور الفترة الاولى .

ه — الاستعداد :

قبل البدء بأى مشروع ، يجب التأكد من استعداد المواطنين للقيام به ، ولكى يتأكد المشرف من قدرة الاهالى على القيام بالمسئولية ، عليه أن يدرس امكانياتهم المادية والانسانية والنفسية حتى يطمئن الى نجاحهم ، وعليه ان يبصر الجماعة القائمة بالمشروع الى نواحى القوة والضعف واحتمالات النجاح والفشل .

٦ — الحركة :

على المشرف أن يسير بالعمل بالسرعة التى يحتملها المجتمع ، فلا يسرع عن الناس فيتركون له المسئولية ، ولا يبطىء عنهم فيفقدون حماستهم للعمل وينفضون عن المشروع .

على أنه ليس من اليسير التأكد من سرعة التقدم الواجبة فى عمليات التنمية ، وخاصة فى بلادنا حيث تتسع الهوة بين آمال المواطنين من ناحية ، وقدرتهم على العمل والتنفيذ من ناحية أخرى . فالناس فى جمهورية مصر العربية يأملون فى اصلاح سريع ، ويتمنون تغيير الاوضاع فى يوم وليلة ، فاذا بدأوا فى العمل اكتشفوا أن التغيير ليس بالسهولة التى ظنوها . وهنا تكمن المشكلة فى تطبيق المبدأ الذى نحن بصدده ! هل يساير المشرف المواطنين بسرعة آمالهم أم بسرعة قدرتهم على العمل والتنفيذ ؟ والواقع ان الاجابة على هذا السؤال من اشق الامور ، فقد لاحظ الكاتب عدم رضاء المواطنين عن عمل مشرفى تنمية المجتمع فى كلا الحالتين . فاذا سار المشرف بسرعة تتناسب مع قدرات الاهالى ، احتج المواطنون واتهموا المشرف بالتكاسل والتراخى . واذا أسرع فى خطواته وجد المشرف نفسه وحيدا فى الميدان ، ويتحول الاهالى الى متفرجين ، لا هم لهم الا النقد والتساؤل .

ويرى الكاتب أن الطريقة المثلى للتخلص من هـذا المأزق لا تتأتى الا اذا اتبع المشرف الخطوات التالية :ـ

(أ) يحاول المشرف مساعدة الاهالى لكى تتواضع آمالهم فتصبح أكثر واقعية ويكون ذلك عن طريق المناقشة والمقارنة بالمشروعات القائمة وحساب تكاليف المشروع وهلم جرا .

(ب) يحاول المشرف مساعدة الاهالى لكى تصبح قدرتهم على الانتاج اكبر ويكون ذلك عن طريق التدريب والمساهمة المادية فى المشروعات .

(ج) يحاول المشرف ان يسير بسرعة وسط ، فلا يسرع بالدرجة التى تبعد الاهالى عنه ولا يبطىء بالدرجة التى تزيد من قلق الاهالى وسخطهم .

٧ ــ التفـريد :

ولو أن واجب مشرف تنمية المجتمع يحتم عليه الاهتمام بالمجتمع كوحدة الا ان هذا المجتمع ما هو الا مجموعة من الجماعات تضم مجموعة من الافراد ، وعلى هذا الاساس يجب على الاخصائى الاهتمام بالجماعات والافراد . على أن الواقع يحتم على المشرف تخصيص وقت اطول للاهتمام بمشكلات الجماعات .

يهتم المشرف بالجماعات وهو يعلم أنها تختلف عن بعضها من حيث المقدرة والتركيب والاهداف ... الخ ، ويهتم أيضا بالافراد وهو يعلم أن كل فرد يختلف عن الفرد الآخر فى قدراته واستعداداته .

٨ ــ التنظيم :

يجب أن يراعى المشرف المرور فى مراحل تنمية المجتمع ــ مرحلة بعد مرحلة ــ فى كل مشروع يتناوله أثناء عمله . عليه أن يراعى أن يبدا الاهالى ببحث الموضوع من جميع جوانبه ، ثم ينتقلون الى تشخيص الحالة ، ثم وضع الخطة المناسبة ، ثم القيام بالتنفيذ فالتقويم . يقوم الاهالى بكل هذا بمساعدة المشرف وبتوجيهه . بهذا فقط يضمن المشرف نجاح اغلب المشروعات من ناحية ، واستفادة المواطنين من ناحية اخرى .

٩ ــ العلاقات المهنية :

يجب أن تكون العلاقة بين المشرف والمواطنين علاقة مهنية ، فلا تكون وثيقة بدرجة يفقد المشرف بها بعض نفوذه وحياده اذا ما تطلب الموقف

تفوقا وحيادا ، ولا تكون ضعيفة بدرجة تجعل الاهالى يترددون فى الرجوع للمشرف اذا ما ارادوا الرجوع اليه فى شأن من الشئون .

١٠ — الرجوع للخبراء :

يجب على المشرف الرجوع الى المختصين فى كل ناحية كلما احتاج الامر فيستعين بالمربين عند دراسة المشروعات التربوية ، وبالاطباء عند دراسة المشروعات الصحية ، وبالزراعيين عند دراسة المشروعات الزراعية ، وهلم جرا .

١١ — التقويم :

يجب الا يتردد المشرف فى القيام بعمليات التقويم باستمرار للتأكد من مدى نجاح العمل الذى يقوم به . عليه أن يحدد أهداف عمليته بالتفصيل وينظم السجلات والتقارير اليومية والشهرية والسنوية . كما أن عليه أن يستعين بالخبراء للقيام بعمليات التقويم كل فترة ، على أن يشمل هذا التقويم ناحيتين : مدى التغيير الذى طرأ على المواطنين نتيجة لاشتراكهم فى عمليات تنمية المجتمع وتنظيمه ، ومدى التغيير الذى طرأ على البيئة أيضا نتيجة لنفس العملية .

الخطوات الاساسية
لتنمية المجتمع

وتتضمن خطوات تنمية المجتمع المراحل التالية :

اولا — المرحلة التمهيدية

١ — شرح الموضوع للمواطنين :

قلنا انه من الواجب اشراك المواطنين فى كل خطوة من خطوات تنمية المجتمع وتبدا عملية الاشراك هذه منذ البداية وذلك بشرح الموضوع للاهالى . وتختلف طريقة الشرح هذه من مجتمع لمجتمع ومن مستوى لمستوى ، فقد يكون الشرح عن طريق الزيارة والحديث المباشر فى حالة المجتمعات المحلية ، كما قد يكون عن طريق الصحف والاذاعة والتليفزيون

فى حالة المجتمعات الكبيرة ، وقد يكون الشرح أيضا عن طريق الاتصال بالمواطنين عامة كما قد يكون عن طريق الاتصال بممثلين لهؤلاء المواطنين وسواء كان هؤلاء الممثلين أعضاء فى مجالس القرى أو جمعيات للتنمية أو غير ذلك . المهم أن الاتصال بالمواطنين وشرح ما يزمع اتخاذه من خطوات واجب أساسى يجب أن يبدأ به كل مشروع سواء كان كبيرا أو صغيرا ، محليا أو قوميا . ويتضمن هذا الشرح عادة ناحيتين .

(أ) ما سوف تقدمه الهيئة المشرفة على المشروع المقترح .
(ب) واجب الاهالى ودورهم فى المشروع المقترح .

ويتبع هذا الشرح دعوة للمواطنين للادلاء بآرائهم ومقترحاتهم فى المشروع المزمع القيام به لاستنباط مدى تجاوبهم مع ذلك المشروع ، ومدى استعدادهم للقيام بدورهم كمسئولين اساسيين عن كل ما يدور فى مجتمعهم .

وتنقسم المشروعات فى مجتمعنا الى ثلاثة انواع اساسية :

(أ) مشروعات ترى الحكومة والخبراء أهميتها القصوى ووجوب السير بها سواء استوعبت الاغلبية الشعبية أهميتها ومغزاها أو لم تستوعبها ومن أمثلة ذلك المشروعات الطويلة الاجل كمشروعات الانتاج عامة .

(ب) مشروعات ترى الحكومة والخبراء أهميتها وترى فى نفس الوقت وجوب تجاوب الرأى العام معها ، ومن أمثلة ذلك مشروعات الخدمات الحكومية عامة .

(ج) مشروعات ترى الحكومة تركها للشعب ومساندتها حكومية عن طريق اصدار القوانين التى تنظمها ، كذا تقديم المشورة الفنية والمساعدة المادية ، ومن أمثلة ذلك كل المشروعات التى يقوم بها الاهالى بوحى من أنفسهم وحاجاتهم على أى مستوى من المستويات .

وتختلف طريقة شرح الموضوع للمواطنين حسب نوع المشروع ففى النوع الاول يكون الشرح - أساسا - من قبيل التعريف والاقناع ، وفى النوع الثانى يكون الشرح بغرض ايجاد جو من التعاون بين الحكومة

والاهالى من ناحية ، والحصول على راى المواطنين من ناحية أخرى ، اما فى النوع الثالث فيكون الشرح بهدف اذكاء الرغبة فى العمل الجاد المثمر واستثارة اهتمام الشعب بحاجاته واشعاره بامكانية التغلب على كثير من المشكلات بالتعاون والعمل والاعتماد على الموارد المحلية .

وعلى العموم ، سواء كان هذا الشرح من النوع الاول أو الثانى أو الثالث ، فمن الواجب أن يراعى فيه ان يكون واقعيا ، فلا يوقظ فى الناس آمالا لا يمكن تحقيقها ، وأن يوضح للمواطنين الصعوبات التى سوف يلاقونها ، ويبين لهم دورهم فى التغلب على تلك الصعوبات ، وأن يقدم للمواطنين صورا واقعية لمجتمعات أخرى انتهجت نفس السبيل بجهود حكوماتها ومواطنيها فى التغلب على بعض مشكلاتها ، وفى الوصول الى مستوى معيشى أفضل .

٢ ــ اكتساب ثقة الاهالى :

وتتلو مرحلة الشرح والتعريف ، مرحلة اخرى تمهيدية تهدف الى كسب ثقة الاهالى واشعارهم بالاطمئنان للقائمين بالقيادة المهنية فى المشروعات سواء كان هؤلاء من ممثلى الحكومة أو الهيئات الاهلية . تبدأ هذه المرحلة بتعرف المواطنين على القائد : تعرفهم على شكله وملبسه ونبرات صوته ، ويرتبط هذا فى أذهانهم ونفسياتهم ــ دون ادراك منهم ــ بخبراتهم السابقة مع أمثال هذا القائد ، ثم ترتبط الثقة بتصرفات القائد فى المواقف المختلفة ، كوفائه لوعوده ، وحرصه على وقته ، واحترامه للكبير والصغير ، وايثاره لغيره ، ثم اجتهاده ودابه فى سبيل المصلحة العامة ، ورضاء الناس عن آرائه ومعتقداته ، وقدرته على ايجاد الحلول المناسبة ــ ثم ترتبط عملية كسب الثقة فى النهاية بقدرة المجتمع على تحقيق أهدافه تحت قيادته . فاكتساب ثقة الناس اذن عملية مستمرة : قد يكون لها بداية ولكن نهايتها لا تأتى أبدا ، فهى ليست مرحلة بالمعنى المفهوم ، ولكنها تبدأ مع المشروع وتستمر مادام العمل قائما .

ومعركة كسب الثقة لا تعنى أن يتنازل المشرف عن كل أو بعض معتقداته وآرائه لارضاء المواطنين ، ولا تعنى أن يقضى المشرف فترته الاولى فى الزيارات وشرب القهوة والشاى ، فالناس تنتظر الكثير فى هذه الفترة ، وهم تواقون الى من يساهم فى تنظيم صفوفهم للعمل وبذل الجهد . ثم انهم سرعان ما يسأمون العمل اذا لم يصلوا الى نتائج يرضون عنها .

ويكاد يكون المشروع الاول فى المجتمع هو المعركة الفاصلة فى موضوع كسب الثقة فى مرحلتها الاولى ، فنجاح هذا المشروع يعنى كسب ثقة المجتمع من ناحيـة ، وازدياد ثقة الناس فى انفسهم من ناحيـة أخرى ، مما يؤدي بالتالى الى ازدياد رغبة المواطنين فى العمل المشترك ، كما يؤدى فشل هذا المشروع الى واد ثقة الاهالى فى قائدهم الجديد وفى ثقتهم بانفسهم كمجتمع قادر على مقابلة حاجاته . لهذا يؤكد كل من عمل فى هذا الميدان اهمية اختيار المشروع الاول واهمية نجاح المجتمع فى تنفيذه .

٣ — التعرف على المجتمع :

تبدأ مرحلة التعرف على المجتمع ببدء التفـكير فى العمل ، وذلك بالاطلاع على الخرائط والاحصاءات وادلة الخدمات الحكومية فى المنطقة مما يعطى للمشرف فكرة عامة عن حالة المجتمع . ويبدأ العمل بتعرف المشرف على حال المجتمع عن طريق زيارة المؤسسات ومقابلة القادة المحليين والزيارات المنظمة ، والاستماع الى كل ما يقال ، وملاحظة كل ما يرى ثم التسجيل فيما بعد .

وفى نهاية هذه العملية يكون المشرف قد توصل مبدئيا الى تحـديد القادة الرسميين كما يكون قد توصل الى بلورة عدد من المشكلات الرئيسـية فى المجتمع التى تحتاج الى حل سريع .

٤ — بناء الجهاز الرئيسى :

لابد لأى مشتغل بتنمية المجتمع من مجلس رئيسى يعمل معه للقيام بعمليات التنمية . وقد يكون هذا المجلس موجودا كالمجلس القروى أو جمعية تنمية المجتمع . ويمثل هذا المجلس فى العادة الهيئات المشتغلة فى المجتمع سواء كانت أهلية أو حكومية — اقتصادية أو اجتماعية — كما يمثل المواطنين بشكل عام .

وعن طريق هذا الجهاز ، يمكن للمشرف معاونة جميع هيئات المجتمع بل وأفـراده أيضا كما يمكنه تحقيق الاهـداف التخطيطية والتنسيقية والتدعيمية السابق الاشارة اليها .

٥ — الاختبــار :

وبتعرف المشرف على المجتمع وببدء الجهاز الرئيسى (المجلس أو الجمعية) فى العمل ، تبدأ مرحلة الاختبار . وفى هذه المرحلة يبدأ المجلس فى دراسة وبلورة وتنفيذ مشروع أو مشروعين على المستوى التنظيمى أو التنفيذى وذلك لاختبار مجهوداته ولاشعار الاهالى بوجوده . ومن ناحية اخرى يتمكن المشرف فى هذه المرحلة من التعرف على درجة نضوج جهازه ومدى استعداده للقيام بعمل مشترك لرفع مستوى المعيشة بين الاهالى .

ثانيا : المرحلة التخطيطية :

انتهينا من المرحلة التمهيدية وقد تحسس القائم بعمليات التنمية طريقه الى داخل المجتمع فتعرف على الناس كما تعرف الناس عليــه ، وتفهم الاوضاع القائمة والقيم السائدة ، ولاحظ بعض المشكلات الهامة ، واختبر جهازه فى بعض المشروعات البسيطة ، انتهينا من هذه المرحلة التمهيدية لندخل فى مرحلة اخرى يمكن ان نطلق عليها اسم « مرحـلة التخطيط » . ففى هذه المرحلة تتبلور مبادىء الاصلاح وتدرس الحاجات والموارد ، وترتب الحاجات حسب أهميتهــا ، وتقسم المشروعات على مراحل زمنية وبالاختصار هى المرحلة التى يتم فيها وضع الخطة لتبدأ بعدها مرحلة التنفيذ .

ولعملية التخطيط منهجان اساسيان : منهج ديموقراطى ، وآخـر اتوقراطى ، ويدعو المنهج الاول الى أحقية الشعب فى تقرير مصيره ، فهو الذى يدرس ، وهو الذى يقترح ، وهو الذى يقرر ما سوف يقوم به من مشروعات . أما المنتج الثانى فهو يؤمن بقدرة السلطة الحاكمة وخبرائها فى تحديد حاجات الشعب ووضع الخطة التى تتجاوب مع الأوضاع القائمة بطريقة مركزية . على أن هناك منهج ثالث يجمع بين النقيضــين فيعطى الحكومة المركزية والفنيين حق التخطيط فى بعض الامور كما يترك للشعب حق التخطيط فى امور أخرى . فهو اذا منهج يجمع بين التوجيه من ناحية وترك الحياة الديمقراطية تأخذ مجراها من ناحية أخرى . ولعل هذا المنهج الاخير هو أقرب المناهج لفلسفة الاصلاح فى جمهورية مصر العربية .

وخطوات هذه المرحلة هى :

الدراسة العامية :

قلنا ان من واجب المشرف التعرف على خصائص المجتمع الذى يعمل

فيه بشكل عام كخطوة أولى حتى يمكنه أن يتناول الموضوع بشىء من الدراية والفهم . على أن هذا النوع من الدراسة لا يكفى اطلاقا لتحديد حاجيات وموارد البيئة لغرض وضع منهاج شامل كامل للعمل فى المجتمع فتحديد الحاجات والموارد يحتاج الى دراسة منظمة وجهد طويل واشراف علمى دقيق .

يمكن تقسيم الدراسات العلمية التى يحتاجها العمل فى المجتمعات المحلية الى أنواع شتى ... على أن أهمها — من وجهة نظر العاملين فى عمليات تنمية المجتمع هى المسح الشامل والدراسة النوعية والتقويم . ويتناول المسح الشامل نواحى كثيرة وعامة فى المجتمع بهدف التعرف على حال المجتمع ككل وكوحدة ، أما الدراسة النوعية فتتناول موضوعا واحدا كالتعليم أو الصحة أو الدخل ، وتهدف الى التعمق فى فهم مشكلة معينة ووضع التوصيات بشأنها . أما التقييم فيهدف الى قياس مدى نجاح أو فشل عمليات تنمية المجتمع وتنظيمه فى تحقيق اهدافها »

وضع الخطة :

وبانتهاء مرحلة الدراسة تبدأ مرحلة وضع الخطة العملية ، أى وضع المشروعات التى تهدف الى مقابلة الحاجات السابق تحديدها فى الدراسة ، فى حدود الامكانيات والموارد السابق تحديدها أيضا . وتوضع هذه المشروعات فى جدول مقسم الى تقسيمات من زوايا مختلفة ، ومن اهم هذه الزوايا ما يلى :

(أ) تقسيم المشروعات على مراحل زمنية حسب اولويتها ، اى مشروعات يجب البدء فيها فورا ، وأخرى يمكن تأجيلها الى حين ، ثم ثالثه يمكن تركها للظروف .

(ب) تقسيم مشروعات نفس المرحلة الاولى الى مشروعات اهلية وأخرى حكومية .

(ج) تقسيم مشروعات نفس المرحلة الى تعليمية وصحية واجتماعية وعمرانية واقتصادية .. الخ .

(د) تقسيم مشروعات نفس المرحلة الى مشروعات يشعر اغلب الاهالى بأهميتها ، وأخرى لا يستشعر بأهميتها .

(هـ) توزيع مشروعات تلك المرحلة على الهيئات التى ينتظر أن تقوم بتنفيذها ، وقد تكون تلك الهيئات وزارات أو هيئات أهلية كبير فى حالة المستوى القومى ، او اقسام المحافظات والهيئات الاهلية فى حالة مستوى المحافظة ، كما قد تكون لجان مجلس القرية أو جمعية تنمية المجتمع فى حالة المستوى المحلى .

ولكي تكتمل الخطة يجب أن تتضح فيها المصادر البشرية كالمعلمين والاطباء والزراعيين ... الخ ، كما يجب أن تتضح فيها مصادر التمويل .

وعلى العموم فان وضع اى خطة ينطوى على خطوتين أساسيتين :

١ — اختيار أهداف تقع فى حدود الامكانيات المتاحة التى تتمثل فى المتاح من الموارد .

٢ — استخدام هذه الموارد بأقصى طاقاتها بما يحقق الاهداف المرجوة .

ثالثا : المرحلة التنفيذية :

وصلنا الآن الى أن المشرف قد صار معروفا ومقبولا من الاهالى ، والى انه قد بدأ فى تكوين جهاز رئيسى (مجلس أو جمعية) يعمل معه ، وأن هذا الجهاز قد اختبر نفسه فى مشروع أو مشروعين ، وانه قد قام بوضع خطة كاملة للنهوض بالمجتمع بمعاونة المشرف . والسؤال الذى امامنا الآن هو : كيف يقوم هذا الجهاز بالتعاون مع المشرف وبقية المواطنين بتنفيذ هذه الخطة المرسومة ؟ ..

ولتناول هذا الموضوع ، نرجع قليلا الى التقسيم الذى سبق الاشارة اليه ، فقد قلنا ان هناك ثلاثة انماط من مشروعات الاصلاح .

(أ) مشروعات ترى الحكومة وجوب قيامها سواء استوعب الشعب قيمتها أم لم يستوعب ، كمشروعات التصنيع والانتاج عموما .

(ب) مشروعات ترى الحكومة قيامها وتأخذ رأى الشعب فيها للتأكد من مقابلتها لحاجاته الاساسية ، ومن أن الوسائل المستخدمة هى

أسرعها وايسرها واقلها تكلفة ، ومن أمثلة هذه المشروعات الوحـدات الزراعية والبيطرية .

(ج) مشروعات تتركها الحكومة نهائيا للشعب يوجهها كيف يشاء ويمولها من ماله الخاص ، وتدعمها الحكومة بالراى والمال دون تدخل فى أهدافها أو وسيلة تنفيذها .

ويكاد ينحصر دور المشرف ، فى اللون الاول من المشروعات ، فى توجيه عمليات التعريف بتلك المشروعات حتى يؤمن بقيمتها أكبر عدد من المواطنين وحتى يقبل هؤلاء على التعاون معها سواء كان ذلك عن طريق التمويل المباشر أو شراء المنتجات .

ويمتد دور المشرف أكثر قليلا فى اللون الثانى من المشروعات ، فهو الذى يوجه عمليات التعريف بها ، وهو الذى يحدد بطرقه واسـاليبه رأى الشعب فيها ، وهو الذى يدبر المقابلات والاجتماعات والمؤتمـرات التى يتلاقى فيها ممثلو الشعب مع ممثلى الحكومة للبحث المشترك فى أيسر السبل وأسرعها واقلها تكلفة لمقابلة حاجات الشعب . ولعل مجالس ولجان الادارة المحلية ومؤتمرات الاتحادات هى المكان الاوفق لحدوث هذا التلاقى بين الشعب والحكومة .

ويهتم المختصون فى تنمية المجتمع باللون الثالث من المشروعات اهتماما خاصا ، فهم يرون فيها مثلا أعلى ليقظة الشعب واهتمامه بمشكلاته واعتماده على نفسه فى حلها ، ويعتبرونها مظهرا لايجابيته وتعاونه وولائه لمجتمعه . ولهذا سوف نتناول هذا النمط الاخير بشىء من التوضيح .

المجهودات الاهلية فى تنمية المجتمع وتنظيمه :

هناك خطوات رئيسية لكل تغير مقصود أو موجه .

١ — ايقاظ الرغبة فى المواطنين للتغير .

٢ — احداث التغير .

٣ — تثبيت التغير الحادث حتى يصبح جزءا من مقومات المجتمع فى وضعه الجديد .

وسوف نتناول الآن كل خطوة من هذه الخطوات ببعض الشرح .

١ - **ايقاظ الرغبة فى المواطنين للتغير** : من الممكن تقسيم المواطنين فى كل مجتمع الى ثلاث فئات : فئة رجعية وفئة متحررة ، وفئة ثالثة لا تدرى أين هى ، تسيرها الاحداث دون ان يكون لها فى الامر راى أو عقيدة . والفئة الاولى هى العقبة فى كل مجتمع ، والفئة الثانية هى الامل فى احداث أى تغير فى المجتمع ، أما الفئة الثالثة فهى تابعة ، تقبل التغير اذا ثبت لها بالتجربة أنه فى صالحها ، واذا ثبت لها أيضا انه سوف لا يؤذى مصالحها مع الفئة الأولى .

فالتركيز اذن فى عملية الاستثارة أو ايقاظ الرغبة يكون أولا على الفئتين الاولى والثانية ثم يأتى بعد ذلك دور الفئة الثالثة ، فيعمل المشرف مع الفئة الاولى بقصد التغلب على مشكلة المقاومة الموجودة ، فقد يرى بعض افراد الفئة الرجعية أن مجرد وجود المشرف بينهم يهدد قيادتهم ويهز مكانتهم التقليدية ، وقد يرى بعضهم أن مشروعات المشرف تهدد مصالحهم الاقتصادية فى المجتمع ، كما قد يرى بعضهم أن آراء المشرف تتعارض مع عقائدهم وقيمهم التى توارثوها على مر الاجيال .

ومن هنا أتت أهمية الحذر فى تناول الموضوعات وفى تكوين العلاقات حتى يطمئن افراد هذه الفئة الى المشرف فيفتحون له قلوبهم ، ويسرون له بما فى نفوسهم ، وهكذا يكون قد تغلب جزئيا على مشكلة المقاومة .

اما الفئة الثانية (الفئة التحررية) فيهتم بها المشرف لانها مصدر النور فى المجتمع فهى الفئة التواقة الى تجريب كل جديد حتى ولو كان فى هذه التجربة بعض المغامرة بالخسارة فى بعض الاحيان . يهتم المشرف بهذه الفئة ليساعدها على فهم الاوضاع بعمق أكثر وبدراية أكبر وليساعدها على بلورة مشروعاتها وتقدير نواحى قوتها ونواحى ضعفها ، ثم ترتيبها حسب اهميتها ، ثم محاولة تنفيذها عن طريق المجلس الذى يمثل فئات المجتمع والسابق الاشارة اليه .

ولايقاظ الرغبة فى المواطنين لابد ان يطمئن اغلب افراد المجتمع (الفئات الثلاث) الى ان هناك وضعا احسن مما هم عليه ، وأن هذا الوضع لا يضر - فى مجموعه - بمصالح اى فئة من الفئات الثلاث ، وانه فى امكان المجتمع الوصول الى هذا الوضع الجديد اذاما قام بمجهودات صادقة فى حدود امكانياته وقدراته .

ومن الممكن تنبيه المواطنين الى الوضع الاحسن عن طريق استعمال كل ادوات الاعلام كالمقابلات الشخصية والمحاضرات والمناقشات أو الزيارات والسينما والصحافة والاذاعة والتلفزيون ، على أنه من الخطر كل الخطر تشجيع المواطنين على التشبث بآمال بعيدة عن واقعهم ولا يمكنهم تحقيقها .

أما من ناحية ضرر بعض المشروعات لمصالح بعض الفئات ، فيترك هذا أساسا للتفاعل الطبيعي فى المجتمع ، وللشد والجذب الذى سوف يحدث فى مختلف الاجتماعات والمقابلات حتى يصل المواطنون الى مايرونه فى صالح الجميع . وما على المشرف فى هذا الموضوع الا تسهيل ذلك التفاعل الطبيعي عن طريق تشجيع الاجتماعات وابتكار فرص الاحتكاك الذهنى بين مختلف الفئات حتى يستقر المواطنين على رأى مشترك .

٢ — **احداث التغير** : وايقاظ الرغبة فى التغير لا يعنى اطلاقا ان التغير سوف يحدث فعلا ، فكثيرا ما نسمع الناس تتشدق فى الجلسات الخاصة — فى البيوت والمقاهى والنوادى — بما يجب عمله لاصلاح حال المجتمع . وهم يتحدثون ويقترحون وينقدون دون أى شعور بالمسئولية نحو التنفيذ الفعلى . اذا فتحويل الرغبة فى احداث التغير الى تغير فعلى مشكلة فى حد ذاتها تحتاج من المشرف الى بعض الجهد . وينحصر دور المشرف فى هذه الناحية فى تحويل الاجتماعات الطارئة وغير الهادفة ، التى تحدث فى القهوة والبيت والنادى ، الى اجتماعات تنفيذية هادفة يتناول فيها المجتمعون مشروعات محددة لدراسة طريقة تنفيذها وتحويلها الى واقع ملموس .

ويتطلب هذا من المجتمعين المرور فى ست خطوات اساسية :

(أ) اختيار المشكلة الملحة التى يجب تناولها .
(ب) تحليل المشكلة واستيضاح كل جوانبها .
(جـ) اقتراح الحلول المختلفة لحل المشكلة .
(د) اختيار لحل المناسب .
(هـ) تدبير الوسائل لتنفيذ الحل المتفق عليه .
(و) تحويل التدابير الى حقيقة واقعة .

٣ ــ تثبيت التغير الحادث : كثيرا ما يؤدى وجود المشرف الى حدوث نشاط وقتى فى المجتمع ، ثم يعود الأمر كما كان بانسحاب المشرف . وان دل هذا على شىء فهو يدل على سطحية الاصلاح وعلى ان التغير الحادث لم يتناول عادات المواطنين واتجاهاتهم ، فيصبح العمل المشترك لحل مشكلات المجتمع جزءا من الثقافة المحلية ، يلجأ اليه المواطنون لمقابلة حاجاتهم بدل انتظار ما قد تقوم به الحكومة فى المستقبل .

ولكى يتأكد المشرف من وصوله الى تغير ثابت ، يجب عليه أن يلاحظ ما يلى :

١ ــ ارتباط الموضوع الجديد بالثقافة المحلية كلما أمكن ذلك . فلا يدعو المشرف مثلا الى تكوين مجلس من المتعلمين فقط فى قرية ما ، بينما اعتاد الناس فى هذه القرية على أن يكون للشيوخ وكبار السن مكان مرموق فى كل نشاط جديد .

٢ ــ يؤدى قيام النظام الجديد فى عدد من المجتمعات المجاورة الى تمسك أهل المجتمع بالطريقة الجديدة . فلو اقتنع الفلاحون مثلا فى عدة قرى بطريقة جديدة فى الزراعة فان احتمال الرجوع الى الطريقة القديمة، يكون أقل مما لو اقتنعت به قرية واحدة .

٣ ــ يؤدى نجاح الطريقة الجديدة فى الوصول الى الاهداف التى عملت من أجلها الى تمسك المواطنين بها . وقد لا يشعر المواطنين بهذا النجاح ، ولذا يجب على المشرف تدبير الوسائل التى تعين المجتمع على تقدير قيمة العمل الجديد ، وذلك بالقيام بتقييم المشروع دوريا وتقديم التقدير عنه للأهالى فى مختلف المناسبات .

٤ ــ يؤدى حسن اختيار مراكز التغير الى أن يصير قبوله وبقاءه أكثر احتمالا ، فاحتمال ثبوت التغير الذى يؤدى الى زيادة دخل المواطنين أكبر من احتمال ثبوت التغير الذى يؤدى الى رفع أسعار المواد الغذائية مثلا . ومن ناحية اخرى فان احتمال ثبوت التغير اذا ما اقتنع والتزم به القادة فى المجتمع اكبر من احتمال ثبوته اذا ما اقتنع والتزم به بعض المواطنين العاديين .

رابعا — المرحلة التقييمية :

يظن الكثيرون ان مرحلة التقويم هى نهاية أى مشروع ، والواقع ان هذه المرحلة تكون — فى غالب الاحيان — فاتحة نشاط جديد نتيجة للتوصيات والاقتراحات التى تصل اليها عملية التقييم ، أى ان التقييم وسيلة لزيادة كفاءة العملية القائمة وليس غاية فى حد ذاته ، فما يكاد الاخصائى ينتهى من عملية التقييم حتى يعود مرة اخرى الى مرحلة التخطيط فيعاودها مسترشدا بما وصل اليه من نتائج وخبرات .

العمل مع المواطنين فى القرية

انتهينا فى المرحلة السابقة من تحديد معنى تنمية المجتمع ومن وصف الخطوات الاساسية لهذه العملية ، وسوف نبدأ هنا مرحلة جديدة تتصل اتصالا مباشرا بالعمل الفعلى فى المجتمع . سوف نتناول فى هذا الفصل كيفية تعامل الاخصائى مع المواطنين فى المجتمع .

اولا : عمل الاخصائى فى الاسابيع الاولى :

تعتبر الفترة الاولى للعمل فى المجتمع من أصعب الفترات التى يمر بها ، فعلى اساس تصرفاته واستجاباته اثناءها يشكل مركزه فى المجتمع وعلاقاته مع الاهالى فى المستقبل .

فمن ناحية المشرف ، هى مرحلة دراسة وتعرف ، ومن ناحية الاهالى هى مرحلة اختبار لذلك « الدخيل » الجديد ، كل الفريقين يستمد فهمه للآخر من خبراته السابقة ، فالمشرف يعامل المواطنين كما كان يعامل الناس فى المجتمعات الأخرى ، وهم يعاملونه حسب ما كانوا يعاملون موظفى الحكومة السابقين . هو يشرح لهم ما يريد فيهزون رؤوسهم بالتأييد ولسان حالهم يقول « سمعنا من دى كتير » ويزودهم ويلاقيهم ويحادثهم ويناقشهم ويتبسط معهم ، ولكنه لا يكاد يتركهم حتى يقول أحدهم : « الغربال الجديد له شدة ! » .

هم ينتظرون منه ان يعمل ، وهو ينتظر منهم المبادأة ، وتمر الايام حتى يعرف كل منهم الآخر فيأنس له وتتحدد العلاقات بينهم ، ويفهم كل فريق كيف ومتى يتصرف ، وتبدأ العجلة فى المسير .

فى هذه المرحلة المائعة يتحدد كثير من مستقبل العمل مع المجتمع ولهذا السبب خصصنا له بعض التوجيهات :

١ - يجب ان يقوم المشرف بتقديم نفسه للعمدة وأمين الاتحاد والمأمور وناظر المدرسة ورئيس الجمعية التعاونية وباقى القادة الرسميين فى المجتمع المحلى ، بمجرد وصوله الى ذلك المجتمع .

٢ - يجب أن يعمل المشرف فى هذه الفترة على تكوين الصداقات واكتساب ثقة الناس وفى هذا يجب أن يراعى ما يلى :

(ا) -أن تكون علاقاته مع الأهالى مهنية .
(ب) أن تكون العلاقات محايدة ، فلا يفضل فريقا على فريق ولا فردا على فرد .
(جـ) أن تمتد العلاقات الى كل الفئات ، فلا يكتفى المشرف بهؤلاء الذين يسعون الى معرفته .

٣ - عندما يزور المشرف المؤسسات الحكومية والأهلية فى المنطقة يحسن أن يظهر تقديره للمجهودات المبذولة .

٤ - يجب على المشرف أن ينأى عن بذل الوعود ، وأن يكون كل ما يعد به هو أن يعمل مع الأهالى اذا أرادوا هم العمل لأنفسهم .

٥ - يجب أن ينأى المشرف عن محاولة تغيير معتقدات الناس فى زياراته الاولى ، والا يدخل معهم فى مناقشات ومناظرات فى موضوعات حساسة .

٦ - يستحسن أن يستمع المشرف اكثر مما يتكلم ، ويلاحظ اكثر مما يسأل الا فى حالة شرح مهمته .

٧ - يجب أن يحضر المشرف للمجتمع فى مواعيد منظمة ومحدده حتى يتعود المواطنون عليها .

٨ — يجب أن يكون مكتب المشرف (اذا كان له مكتب) مفتوحا للمجتمع ، وأن يكون مظهره مناسبا للوضع فى المجتمع . وأن يكون فى مكان محايد حتى تؤمه الفئات المختلفة دون حرج .

ثانيا — عمل المشرف مع الأفراد :

ينصب المجهود الاساسى للمشرف على العمل مع الجماعات فى المجتمع سواء كانت جماعات مباشرة أو جماعات ممثلة (مجلس قرية مثلا) ، ومع ذلك فلا يمكن لأى مشرف أن يتخلص من العمل مع الافراد ، ذلك أن الجماعات تتكون أساسا من أفراد ، كما أن المشرف يكون فى كثير من الاحيان مقصد أفراد المجتمع الاكبر عندما يجابهون بمشكلة من المشكلات. لهذا ، ولو أن وقت المشرف لا يسمح بالمبالغة فى الاهتمام بالافراد ، الا انه يجب أن يعرف شيئا عن دوره مع هؤلاء .

وسـواء كان اهتمام المشرف بأفراد جماعاته (تعليم المسئولين كالرئيس والسكرتير وأمين الصندوق مسئولياتهم ، ومساعدتهم فى مشاكلهم المتعلقة بالجماعة ... الخ) أو كان اهتمامه بالافراد عامة فى المجتمع (مشكلات خاصة) فان هناك أسلوبين أساسيين يستعملها باستمرار : المقابلة والتحويل .

(ا) **المقابلة** : يستعمل هذا الاسلوب لغرضين أساسيين :

أولا : لكى يفهم المشرف الافراد : فيتمكن بذلك من توجيههم أو مساعدتهم .

ثانيا : بغرض تفهم الافراد للمشرف نفسه .

ولكى تكون المقابلة ناجحة يحسن بالمشرف ان يراعى ما يلى :

١ — يجب أن يهتم بالمقابلة فلا تكون « على الماشى » او اثناء وجود أناس آخرين أو اثناء القيام بأعمال اخرى .

٢ — تتم المقابلة فى المجتمعات المحلية ، غالبا ، بدون اخطار سابق فالشخص ذو المشكلة لا ينتظر . وفى هذه الحالة يستحسن أن يعطى المشرف وقته للمقابلة اذا لم يكن مشغولا بشىء هام آخر ، فاذا رأى أن المشكلة من النوع الممكن تأجيله ، يتفق المشرف مع الزائر على موعد ومكان مناسب للطرفين .

٣ — اذا كانت المشكلة معروفة للمشرف قبلا ، فيجب ان يعد نفسه بالمعلومات اللازمة للمقابلة .

٤ — يجب أن يعطى المشرف للزائر فرصة الكلام مباشرة دون مقدمات ، واذا رأى من الاخير ترددا فى الكلام ساعده بالقاء الأسئلة المناسبة .

٥ — الترحاب بمقدم الزائر يساعد الاخير على الاطمئنان والكلام .

٦ — يجب أن لا يعترض المشرف على تصرفات الزائر ، بل يبدى قبوله وتفهمه للوضع بقدر الامكان ، فيشجعه بذلك على الكلام .

٧ — يجب الا يستحوز المشرف على الكلام ، ولا ينتهز الفرصة لالقاء محاضرة او نصيحة بل يجب أن ينصت باهتمام .

٨ — يجب أن تكون أسئلة وملاحظات المشرف ذات هدف لا لمجرد الحديث .

٩ — يجب أن تكون عملية الانصات موجبة ، فيستفهم المشرف عما لا يفهمه ويستعيد ما يفوته ويسجل الارقام والاسماء والتواريخ فى ورقة امامه حتى يمكنه العمل بعد المقابلة .

١٠ — فى حالة ما اذا كانت الخدمة المطلوبة متعارضة مع مبادىء العمل والتقاليد العامة فى القرية ، يجب أن يعتذر المشرف بلطف عن القيام بالمهمة شارحا سياسة العمل فى مشروعات تنمية المجتمع وتنظيمه.

١١ — يجب أن يراعى المشرف الا يتطرق الحديث الى موضوعات أخرى حتى ينتهى من المشكلة الاساسية .

١٢ — يجب أن يتضح الزائر على الغرض من كل سؤال يلقيه المشرف فاذا شك المشرف فى ذلك ، وجب عليه أن يعيد الشرح .

١٣ — يجب الا يقلل المشرف من قيمة المشكلة المعروضة ، فما يبدو بسيطا للاخصائى قد يبدو كبيرا للزائر .

١٤ — يجب الا يحاول المشرف اقناع الزائر بخطئه ، بل يجب أن يحاول أن يجعله يرى الظروف المختلفة عن طريق القاء الأسئلة المناسبة .

١٥ ـ اذا ثار الزائر ضد المشرف ، يجب أن يقابل الاخير هذه الثورة بهــدوء .

١٦ ـ يحسن ان يشعر الزائر ان التجائه للمشرف كان مفيدا كلما أمكن ذلك .

(ب) التحويل : قد يكون تحويل الزائر الى مؤسسة او شخص آخر هو المساعدة الوحيدة له ويمكن للمشرف أن يقوم بها . ويتطلب هـذا أن يكون المشرف ملما بمصادر المساعدة فى المنطقة مثل المستشــفيات والمراكز الاجتماعية والمدارس ومكاتب العمل ... الخ كما يحسن أن يكون للمشرف معرفة شخصية بالمسئولين فى هذه الجهات . وبعد أن يعرف المشرف مشكلة الزائر بوضوح يسجلها فى خطاب للشخص المحول اليه ، ثم يوضح للزائر كيفية الاتصال بالمحول اليه .

فى كل هذا يجب الا يشعر الزائر بأن عملية التحويل ما هى الا عملية تخلص ، بل يجب أن تشعر انها وسيلة مجدية للمساعدة ، ويتأكد هذا بأن يتابع المشرف المشكلة بسؤال الزائر عما تم بعد التحويل .

ثالثا ـ عمل الاخصائى مع الجماعات :

يتعامل المشرف مع جماعات مختلفــة فى المجتمع ، فهو يتعامل مع الجمعيات والروابط والنقابات والمؤسسات وغير ذلك من الجماعات . ويهدف العمل مع الجماعات فى المجتمع المحلى الى ثلاثة أشياء :

١ ـ مساعدة الافراد فى الجماعات على النمو والتكيف مع جماعاتهم .

٢ ـ اكتساب الجماعات لمهارات واتجاهات ومعلومات تساعدهم على الاشتراك الايجابى فى مقابلة حاجاتهم وحاجات المجتمع الذى يعيشون فيــه .

٣ ـ مساعدة الجماعات على تنفيذ مشروعات تهم المجتمع .

ولكى يتمكن المشرف من مساعدة اى جماعة من الجماعات يجب عليه أن يراعى ما يلى :

١ ـ تختلف كل جماعة من الجماعات عن الاخرى ، وبذا يختلف دور

المشرف من جماعة لجماعة ، ويتحدد دور المشرف بناء على حالة كل جماعة كما يتضح مما يلى :

دور المشــرف	حالة الجماعة
مدير للأمور — القائد الفعلى للجماعة	جماعة فى دور التكوين
يشترك بنشاط — معلم — موجه — يستثير الجماعة لمشروعات جديدة .	جماعة فى دور النمو
يشترك أحيانا عندما يطلب اليه ذلك — يقترح أحيانا عندما يرى الحاجة لذلك .	جماعة ناضجة

يساعد المشرف كل فرد فى جماعته على ارضاء بعض حاجاته النفسية الاساسية التى يمكن ارضائها عن طريق الجماعة دون الاضرار بها فالافراد يحتاجون الى فرص التعبير عن أنفسهم ، ويحتاجون الى الاعتراف بمركزهم ، ويحتاجون الى قبول ورضاء الآخرين الى غير ذلك من الحاجات النفسية الاساسية .

٣ — تزيد أى جماعة على أنها مجموعة من الافراد وذلك بالعلاقات الموجودة بين أعضائها ، وتختلف هذه العلاقات كما وكيفا ، فقد تكون علاقات مودة أو عداء او حياد .. ولا تتمكن أى جماعة من البقاء اذا زادت حدة العلاقات العدائية فيها ، وتزيد قدرة الجماعة على العمل بتحسن العلاقات الداخلية بها .

٤ — عند تشكيل اى جماعة يجب ملاحظة ما يلى :

(أ) يجب أن يكون حجم الجماعة صغيرا بشكل يسمح بتكوين علاقات ودية ، فاذا كانت الجماعة كبيرة يمكن تقسيمها الى جماعات صغيرة .

(ب) لا بد أن يتوفر للجماعة حد أدنى من التجانس يسمح بالتفاهم بين أفرادها .

(جـ) لا بد أن يكون لكل جماعة هدف موحد وأساليب وجهاز للعمل ، وفى العادة تنظم هذه الاشياء فى شكل لائحة .

(د) لا يكفى أن ترضى الجماعة عن اهدافها ، ولكن يجب أن ترضى الجماعة عن الاهداف التى يعمل من أجلها مشرف تنمية المجتمع ، كما يجب أن ترضى عن المشرف نفسه كمساعد ومستشار لها فى العمل .

(هـ) لا بد أن يكون هناك بعض التدبير والتخطيط عند البدء فى تكوين اى جماعة جديدة . ويراعى فى هذا التدبير والتخطيط امورا مثل : رضاء الاعضاء المقترحة اسماؤهم عن أهداف الجماعة ، العلاقات بين الجماعات فى القرية ، طبيعة كل شخصية من الشخصيات المقترحة ... الخ .

(و) يجب اشراك الجماعة فى كل خطوة من خطوات العمل والاخذ بآراء الجميع فى كل عملية .

(ز) يجب أن يتفق نوع النشاط الذى تختاره الجماعة مع قدراتها ثم يتطور بنمو الجماعة .

(ح) لا بد أن تشعر الجماعة انها جزء من مجتمع اكبر عليها أن ترضيه حتى تكسب تعاونه وعطفه ، ويكون ذلك عن طريق تعريف المجتمع بنواحى نشاط الجماعة بالطرق المختلفة .

(ط) يجب أن يكون نشاط الجماعة فى حدود القانون وكذلك فى حدود التقاليد والعادات المعترف بها فى المجتمع .

التعرف على حالة الجماعة :

ذكرنا سابقا أن دور الاخصائى يختلف من جماعة لجماعة حسب حالتها ودرجة نموها ، وقلنا للتبسيط أنه يمكن تقسيم الجماعات الى :

(أ) جماعة فى دور التكوين .

(ب) جماعة فى دور النمو .

(جـ) جماعة ناضجة .

والسؤال الذى يطرأ على اذهاننا الآن ... كيف يمكن أن نتعرف على حالة الجماعة من حيث درجة نموها ، أو كيف نقيس « صحتها الاجتماعية » كما يسميها البعض ؟ الواقع أن الطريقة الوحيدة لمعرفة هذا تكون عن طريق دراسة استجابات الاعضاء كأفراد وكجماعات فى مختلف المواقف . وفيما يلى يصنف المؤلف — بطريقة تقريبية — الحالة التى تكون عليها فى الانواع الثلاثة التى سبق ذكرها .

(أ) جماعة فى دور التكوين : تتصف الجماعة البادئة بما يلى :

١ — أهداف وأساليب الجماعة غير واضحة تماما للأعضاء .

٢ — اعضاء الجماعة لا يعرفون بعضهم جيدا .

٣ — اشتراك الافراد فى عمل الجماعة ضعيف .

٤ — اعضاء الجماعة لا يحضرون الاجتماعات بانتظام ، ويحتاجون الى تذكير مستمر بمواعيد الاجتماعات .

٥ — لا يعرف الاعضاء بالضبط من هم الاعضاء ومن هم غير الاعضاء .

٦ — الاعضاء متشوقون لمعرفة كنة مشروعات تنمية المجتمع وأهداف جماعتهم .

٧ — يتشكك الاعضاء فى قيمة العمل المنوطة به الجماعة .

٨ — ينتظر الاعضاء من المشرف أن يعمل لهم لا معهم .

٩ — يعتمد الاعضاء على المشرف كمصدر للمعلومات وللآراء النافعة .

١٠ — مشروعات الجماعة غير محددة وغير واقعية .

١١ — يحاول بعض الاعضاء السيطرة على الجماعة .

١٢ — تحاول بعض أقسام الجماعة أن تسيطر على الجماعة .

١٣ — علاقة الجماعة بالجماعات الاخرى غير واضحة ومبنية على التخوف وعدم الاطمئنان .

(ب) جماعة فى دور النمو : تتصف الجماعة النامية بما يلى :

١ — اهداف الجماعة وأساليبها واضحة نسبيا للأعضاء .

٢ — أعضاء الجماعة يعرفون بعضهم وتتكون بينهم صداقات .

٣ — اشتراك الاعضاء فى أعمال الجماعة جيد نسبيا .

٤ — أعضاء الجماعة يحضرون للاجتماعات بانتظام أكثر ، ولهم مكان ووقت ثابت للاجتماع .

٥ — الجماعة لها لائحة ابتدائية .

٦ — يبدأ الاعضاء فى الشعور بأن الجماعة ملك لهم ، ولا تتبع هيئة خارجية .

٧ — تقل مسئولية المشرف كمنظم وكمصدر للمعلومات .

٨ — يقوم بعض الاعضاء بالقيادة ويقبل البعض الآخر التبعية .

٩ — تكتشف قدرات ومهارات أعضاء الجماعة الواحد تلو الآخر .

١٠ — تتبلور عدد من مشروعات الجماعة وتصير أكثر واقعية .
١١ — تنضج علاقة الجماعة بالجماعات الاخرى فى المجتمع .

(جـ) جماعة ناضجة : تتصف الجماعة الناضجة بما يلى :

١ — أهداف وأساليب الجماعة متضحة ومحددة للأعضاء .
٢ — الصداقة بين أعضاء الجماعة متينة وقوية .
٣ — يشترك الاعضاء فى جميع نشاط الجماعة ويعتبرون انفسهم مسئولين عنه تماما .
٤ — أعضاء الجماعة يحضرون للاجتماعات بانتظام ويسألون عن مواعيدها اذا تأخرت الدعوة .
٥ — تستقر الجماعة ويصبح عدد أعضائها مناسبا للمسئولية التى تقوم بها .
٦ — يتشعب التنظيم ليقابل حاجات الجماعة التى تصبح اكثر تشعبا .
٧ — يشعر الاعضاء أنهم جزء من الجماعة وأن الجماعة ملك لهم .
٨ — يقبل الاعضاء بعضهم بعضا على علاتهم ويتعاونون فى هذه الحدود .
٩ — يصير المشرف احد مصادر المعرفة — لا المصدر الوحيد — وذلك لاكتشاف مصادر أخرى ، وتصبح علاقته بالاعضاء علاقة صداقة وزمالة فى الحدود المهنية .
١٠ — تعرف الجماعة قدرتها على الانتاج فترضى بحدودها ، وتصير بذلك مشروعاتها واقعية .
١١ — تخطط الجماعة لمشروعات اكبر .
١٢ — تتعاون الجماعة مع الجماعات الاخرى فى المجتمع فى مشروعات مشتركة .

الاجتماعات :

تعتبر القدرة على تنظيم اجتماعات ناجحة ، من المهارات الاساسية اللازمة لأى مشرف ، بل انها ركن ركين فى نجاح أى جماعة من جماعاته ، ولذا سوف نتناول فيما يلى بعض التوجيهات العامة والتى تنطبق على كل أنواع الاجتماعات :

توجيهات خاصة بتنظيم الحضور :

١ ـ يجب أن يكون موعد ومكان الاجتماع مناسبا للجميع .
٢ ـ يحسن البدء والانتهاء فى مواعيد محددة كلما أمكن ذلك .
٣ ـ فى حالة اللجان الدائمة التى تجتمع باستمرار يحسن تحديد موعد منتظم للاجتماعات .
٤ ـ يجب اعداد جدول الاعمال وارساله مع الدعوة للاجتماع فى وقت مناسب .
٥ ـ يجب اعادة تذكير الاعضاء قبل الاجتماع مباشرة .
٦ ـ من الملاحظ ان نسبة حضور الاعضاء ذوى المسئوليات فى الاجتماع تزيد عن نسبة حضور الآخرين .
٧ ـ بعد كل اجتماع يستحسن الاتصال بالغائبين حتى يشعروا باهتمام الاخصائى بهم .

توجيهات خاصة بالتنظيم قبل الجلسة :

١ ـ يجب أن يعد جدول الاعمال بالتفصيل .
٢ ـ يجب أن يجتمع الاخصائى برئيس الجماعة قبل الجلسة مباشرة للاتفاق على الخطوط العريضة واتجاه العمل .
٣ ـ يجب ان يعد مكان الاجتماع بطريقة تسمح لكل فرد بالجلوس مستريحا ، وأن يكون المكان حسن التهوية والاضاءة فى حدود الظروف المحلية .
٤ ـ يجب التأكد من ان كل لجنة مسئولة عن عملية معينة ـ مستعدة بتقاريرها .
٥ ـ يجب أن تكون محاضر الجلسات والتقارير المالية وغيرها معدة دائما فى كل اجتماع للرجوع اليها اذا ما احتاج الامر .

توجيهات خاصة بالتنظيم اثناء الجلسة :

١ ـ يجب أن يراعى رئيس الجلسة أن لا يخرج الاعضاء فى المناقشة عن صلب الموضوع .
٢ ـ يجب ان لا يكثر الرئيس من الشرح والتعليق لكى يعطى الفرصة لغيره فى الكلام .

٣ — يجب ان يقوم رئيس الجلسة بتلخيص المناقشات كل فترة حتى يتتبع الحاضرون ما يدور فى الاجتماع .

٤ — يجب أن يحاول رئيس الجلسة الوصول الى اتفاق يقنع الجمبع ويرضيهم فان الاعتماد على عملية التصويت — للتحكيم فى الموضوعات — ليس هو احسن السبل للوصول الى قرارات .

توجيهات خاصة بالعمل بعد ذلك :

١ — يجب ان يتابع المشرف الاستعداد لكل اجتماع بمقالة رئيس الجماعة ، وباقى اعضاء ادارتها وذوى المسئوليات المعينة فيها للتأكد من أن العمل يسير بطريقة مرضية .

٢ — يجب أن يتصل المشرف بالاعضاء المتخلفين عن حضور الاجتماع لاطلاعهم على ما دار فى الجلسة .

اللجــان :

اذا وجدت الجماعات الاصلاحية فى المجتمع — سواء كانت مجالس أو اتحادات أو جماعات للخدمة المباشرة — أن عملها قد زاد على قدرة الهيئة فى اجتماعاتها العادية يحسن تحويل بعض أعمال هذه الجماعات الى مجموعة صغيرة من الاعضاء ، تجتمع فى غير اوقات اجتماعات الجماعة الام ثم تقدم تقاريرها الى الجماعة الاولى كل فترة ، وتسمى هذه المجموعة الصغيرة « لجنة » .

ويمكن تقسيم اللجان من حيث فترة العمل الى نوعين :

(أ) لجان دائمة وتحدد مسئولياتها عادة فى صلب اللائحة ، وتكون عملياتها مستمرة ، وينتخب أعضاؤها عادة فى نفس موعد انتخابات مجلس ادارة الجماعة .

(ب) لجان مؤقتة ، وتحدد حسب حاجة الجماعة ، وتكون مسئولياتها مؤقتة تنتهى بانتهاء القيام بواجبها .

كما يمكن تقسيمها من حيث نوع المسئولية الى :

(أ) لجان ثقافية .

(ب) لجان اقتصادية .

(جـ) لجان اجتماعية .
(د) لجان ترويحية .
(هـ) لجـان مالية .
(و) لجـان صحية .
(ز) لجـان اخرى .

اما من ناحية العضوية فيمكن تقسيمها الى نوعين :

(أ) لجان تقتصر عضويتها على أعضاء المجلس او الاتحاد أو مجلس الادارة .

(ب) لجان يشترك فى عضويتها بعض المواطنين الخارجين المهتمين أو المختصين فى موضوع اللجنة .

ولا تزيد أى لجنة عن أنها مجموعة من الناس بينهم علاقات وعليهم واجب مشترك ، وبهذا ينطبق عليها كل ما قيـل بخصوص الجماعات والاجتماعات عموما ، ومع ذلك يمكن اضـافة بعض التوجيهـات التى تساعدنا فى نجاح مهمة اللجنة .

١ ــ يجب أن تكون مهمة اللجنة واضحة لأعضائها وللجماعة عموما .

٢ ــ يجب اختيـار أعضاء اللجنة بترو ، فيراعى فهمهم لمسئولية اللجنة ، وسهولة اجتماعاتهم من حيث المكان والموعد ، وتوفـر الوقت لديهم حتى يتمكنوا من خدمة اللجنة خدمة كافية .

٣ ــ يجب أن تكون قيادة اللجنة واضحة ومقبولة من الجميع .

٤ ــ يجب أن تكون عضوية اللجنة تطوعية لا تحت ضغط .

رابعا ــ عمل المشروع مع المجتمع ككل :

اذا كان الاتصال بالافراد والجماعات الصغيرة بطريقة مباشرة مقبول وميسور فان الاتصال بالجماعات الكبيرة وبالمجتمع ككل ــ مهما كان هذا المجتمع صغيرا ــ من الصعوبة بمكان . فكيف يتأتى للمشرف ان يجتمع بقرية بأكملها لمناقشة مشكلات المجتمع بطريقة منتجة . وكيف يتأتى له أن يستفيد من الاجتماع بأعضاء جمعية يبلغ أعضاؤها الالف عضو مثلا . فصعوبة ايجاد المكان الملائم ، أو صعوبة تنظيم المناقشات ، وصعوبة الوصول الى قرارات يتفق عليها الجميع كل هذا جعل المصلحين يلجأون

الى نظام التمثيل أو النيابة ، فيختار أعضاء الجمعية مجلسا للادارة ويختار المواطنون فى المجتمع مجلسا أو اتحادا يمثلهم ، وبهذا يسهل الاتصال بين الجماعة وتسهل مناقشة الموضوعات ويسهل الوصول الى قرارات .

ونعود ونقول أن ما ينطبق على الجماعات عامة ينطبق أيضا هنا الا من ناحية واحدة وهى أن كل فرد فى الجماعة الممثلة يمثل أفرادا آخرين يجب أن يعود اليهم للاستشارة وأخذ الرأى من ناحية وتقديم التقارير عن مجهودات الجماعة من ناحية أخرى .

ومن واجب المشرف التأكد من قيام كل عضو بهذه المسئولية الهامة حتى لا تنفصم الجماعة الممثلة عن قاعدتها العريضة .

تثقيف الكبار :

يضم تثقيف الكبار كل العمليات التى تبذل بقصد مساعدة المواطنين فى أى مجتمع على مساعدة انفسهم ، سواء كانوا أفرادا أو جماعات صغيرة أو كبيرة . فالمقابلات الفردية التى ينظمها المشرف مع المسئولين فى الجماعات الاصلاحية بغرض مساعدتهم على فهم واجباتهم ، والاجتماعات وحلقات المناقشة ، والمحاضرات والندوات ، وبرامج السينما والزيارات والمعارض والمتاحف والمكتبات التى يعمل المشرف على تنظيمها فى المجتمع ، كل هذه ما هى الا ادوات لتثقيف الكبار فى المجتمع .

أهمية تثقيف الكبار : وترجع أهمية تثقيف الكبار الى ما يلى :

١ — يمر المجتمع المصرى بفترة تغير سريعة مما يجعل الشعب غير قادر على تتبع التطورات المتلاحقة بنفسه فهو يسمع عن المجالس الشعبية .. وسيطرة الدولة على أدوات الانتاج ، وقوانين العمال ، والائتمان الزراعى ، والادارة المحلية .. الخ ، وكلها مجهودات وعمليات وسياسات يجب تنظيم برامج موجهة لشرحها حتى يتمكن الشعب من ملاحقة هذا الركب السريع .

٢ — يزداد دور الشعب باستمرار فى تسيير شئونه ، فهو مسئول عن مراقبة سير العمل الحكومى وتقديم الاقتراحات للحكومة عن طريق

الاتحاد الاشتراكى ، ومسئول عن ابتكار المشروعات وتنفيذها عن طريق مجالس الادارة المحلية ومجالس الوحدات الاجتماعية والجمعيات التعاونية .. اى ان مسئوليات القاعدة الشعبية تتسع خطوة فخطوة ، ويستدعى ذلك ان تنظم الاجهزه الاجتماعية دراسات شعبية لاعداد القادة المحليين لتحمل مسئولياتهم الجديدة .

٣ — يحتاج أفراد الشعب وخاصة فى القرى الى معلومات أساسية تتصل بحياتهم اليومية مثل تربية الاطفال ، وطرق الزراعة الحديثة ، ومقاومة الامراض ، والوجبة الغذائية الكاملة واهمية مياه الشرب النظيفة ، ومعنى التعاون .. الخ ، هذه المعلومات وغيرها لا تتوفر للكبار عن طريق المدرسة ، أما لان ظروفهم حالت دون اتمامهم للدراسة المنتظمة واما لانهم لم يدخلوا المدارس أصلا .

٤ — تحتاج التنمية الاقتصادية فى كل مجتمع الى وعى اقتصادى أهلى يساندها . فاقبال المواطنين على الادخار والاستثمار وعلى التعاون بكل طريقة مع المشروعات الاقتصادية للدولة ، يدعم ولا شك مشروعات التنمية الاقتصادية . ولما كانت معدلات النمو ترتبط ارتباطا مباشرا بمعدلات الادخار والاستثمار ، فان الوضع يحتاج الى مجهودات تعليمية متواصلة حتى يتضح للشعب دوره الهام فى تدعيم اقتصاديات الدولة فى الحاضر وفى المستقبل .

٥ — انتشر التعليم فى البلاد حتى كاد يعم كل الاطفال فى سن التعليم . هذه الطفرة التعليمية تؤدى بطبيعتها الى بلبلة فى مفاهيم الاسرة وموازينها وقيمها لتخلف الآباء عن الابناء فى كثير من الاحيان . ويستدعى ذلك تنظيم حركة واسعة لتعليم الكبار (الآباء والامهات) حفظا لكيان الاسرة ووحدتها .

نفسية الكبار : ويختلف تثقيف الكبار عن تثقيف الصغار فى نواحى كثيرة ، فالشخص البالغ يريد أن يتعلم بالطريقة التى يرتضيها وفى الموقف الذى يرتضيه ومن المعلمين الذين يقبلهم كمعلمين له . فحضور البالغ لمحاضرة عامة يختلف عن حضوره لحصة ، وقراءة البالغ لكتاب بوحى من نفسه يختلف عن قراءته لكتاب مطلوب تلخيصه وعرضه أمام جماعة . وقد يعتذر شخص بالغ عن حضور دراسة منظمة لان احد زملائه أو مرؤوسيه يقوم بالتدريس فيها ، فالكبار يريدون ان يتعلموا بشرط الا

يعرف احد بذلك ، ويريدون ان يتعلموا ولكنهم يخافون من منافسة الآخرين لهم ، ويريدون أن يتعلموا على شرط ان لا تكون هناك امتحانات. كل هذا يجب أن يكون فى الاعتبار عند تنظيم برامج تثقيف الكبار .

مبادىء عامة يجب مراعاتها عند تثقيف الكبار : وعلاوة على ما سبق ، فهناك بعض المبادىء العامة التى يجب مراعاتها عند وضع برامج لتثقيف الكبار ولعل أهم هذه المبادىء ما يلى :

من حيث مادة البرامج :

(أ) يجب أن يشترك المواطنون بشكل ما فى تحديد مادة البرامج والاشراف على تنفيذها وتقويمها فى النهاية .

(ب) يجب أن تستجيب مادة البرامج لميول المواطنين وحاجاتهم وقدراتهم وخبراتهم .

(جـ) يجب أن تستجيب مادة البرامج للاحداث الجارية فى المجتمع الاكبر ، وفى المجتمع المحلى أيضا ، فتتناول التأميم مثلا عندما تتم عمليات تأميم فى المجتمع ، وتتناول الجمعيات التعاونية عندما يشرع المواطنون فى تكوين جمعية تعاونية وهلم جرا .

(د) يجب أن تراعى مادة البرامج السياسة العامة للدولة والتقاليد والقيم المحلية .

(هـ) يجب تنسيق المجهودات الثقافية مع المجهودات المماثلة للهيئات الاخرى المشتغلة فى المجتمع .

(و) يجب أن يكون جدول البرنامج مرنا بحيث يمكن تعديله اذا جد ما يستدعى تعديله .

من حيث الجو الملائم :

(أ) يجب أن يكون جو الدراسة وديا وغير شكلى أى يكون جو صداقة وزمالة وتقدير من الجانبين .

(ب) لابد وأن يكون مكان الاجتماع حسن الاضاءة والتهوية وان تكون الجلسة مريحة ومنظمة .

(جـ) يجب أن يكون موعد الاجتماع ملائما للجميع بقدر الامكان .

من حيث طريقة العرض :

(أ) يجب أن يهتم المدرس أو المحاضر أو قائد حلقة المناقشة باختيار الطريقة المناسبة لتناول موضوعه .

(ب) يجب تشجيع اشتراك الحاضرين عن طريق المناقشة او الاسئلة .

(جـ) اذا تطلبت العملية اكثر من اجتماع يحسن التنويع فى طريقة العرض .

(د) يجب أن تتناسب سرعة عرض الموضوع مع مقدرة الحاضرين على الاستيعاب .

(هـ) يجب الاستعانة بوسائل سمعية وبصرية للتوضيح .

من حيث القائم بعرض الموضوع :

(أ) يجب أن يكون القائم بعرض الموضوع متمكنا من مادته ومتحمسا لها ومطلعاً على آخر التطورات فيها .

(ب) يحسن أن يكون للقائم بعرض الموضوع خبرة سابقة بمشكلات المجتمع الذى يقوم بالعرض فيه .

(جـ) يحسن أن يكون للقائم بعرض الموضوع خبرة سابقة بتعليم الكبار وبطريقة العرض التى يستخدمها .

من حيث المستفيدين :

(أ) يجب أن يشعر المواطنون أنهم يستفيدون فعلاً من البرامج ويجب سؤالهم عن ذلك باستمرار .

(ب) يجب أن يشعر المستفيدون ان رأيهم له اعتباره فى تعديل البرامج وفى تنظيم البرامج التثقيفية التالية .

طرق تثقيف الكبار :

ولتثقيف الكبار طرق كثيرة ومنوعة ، ولعل اهمها المحاضرة ، والمناقشة والبحث الفردى ، والتمرين والتلمذة وفيما يلى سوف نتناول بعض هذه الطرق بالشرح .

١ — المحاضرة : وتمتاز المحاضرة بانها توفر للمحاضر فرصة عرض كمية كبيرة من المعلومات فى وقت قصير ، ولهذا فهى مفيدة فى عرض الموضوعات الجديدة وفى تقديم النظريات المتعارضة بطريقة منتظمة ، وفى تلخيص المعلومات .

على أن عيبها الاكبر هو انها عملية ذات اتجاه واحد — من المحاضر المستمع — فهى بذلك لا تعطى الفرصة لاكتمال التفاعل بين المحاضر والمستمع .

وللتغلب على هذا العيب ـ بقدر الامكان ـ يمكن للمحاضر ان يشجع المقاطعات والاسئلة أثناء المحاضرة .

ولكي يبقى المحاضر على اهتمام المستمعين وانتباهم أثناء محاضرته يجب عليه أن يراعي ما يلى :

(أ) أن يربط بين خبرات المستمعين والمعلومات الجديدة فى المحاضرة .

(ب) أن لا يكون صوته رتيبا .

(جـ) أن يتخلل حديثه بعض القصص المناسبة للمقام والمتصلة بالموضوع .

(د) أن يقسم موضوعه الى أقسام ، يلخص ما قاله فى نهاية كل قسم ثم يلخص الموضوع كله فى نهاية المحاضرة .

٢ ـ **المناقشة** : تمتاز طريقة المناقشة عن المحاضرة بايجابية المستمع فيها ، فيزداد التفاعل بين الحاضرين وبين المتحدث اذا كان هناك متحدث وهناك عدة طرق فرعية للمناقشة لعل أهمها ما يلى :

(أ) المناقشة الحرة : وتستعمل هذه الطريقة اذا كان الموضوع مفهوما للجميع . فيجلس الحاضرون على شكل حلقة ويبدأ الحوار فورا بعد أن يعلن قائد الحلقة موضوع المناقشة .

(ب) الندوات ذات المناقشة الاولية : وتستعمل هذه الطريقة اذا كانت للموضوع زوايا متعددة ، ولم تكن مادته معروفة من الحاضرين . فيدعى عدد من الخبراء (ثلاثة او أربعة) يتناقشون فى موضوع امام الحاضرين لفترة لا تزيد عن نصف ساعة ، ثم يدعو قائد الحلقة الموجودين للاشتراك فى المناقشة بعد ان يكونوا قد ألموا بأطراف الموضوع . وتمتاز هذه الطريقة بتعدد المتحدثين وحيوية المناقشة مما يثير انتباه الحاضرين ويساعدهم على تتبع الموضوع .

(جـ) الندوة ذات العرض الاول : وتتشابه هذه الطريقة مع الطريقة السابقة فى نواح كثيرة . الا انها تختلف عن الطريقة السابقة فى أن كلا من الخبراء يقوم بعرض موضوعه باختصار ، دون مناقشة بينهم ، قبل دعوة الحاضرين للمناقشة .

(د) المناظرة : وتستعمل هذه الطريقة اذا كان للموضوع وجهتى نظر واضحتين ، فيقسم المتحدثون الى فريقين : فريق معزز لوجهة نظر معينة ، وفريق آخر معارض لها ومعزز لوجهة نظر أخرى وبعد تقديم كل فريق لوجهة نظره فى الموضوع يسمح للحاضرين بالاشتراك فى المناقشة .

ويختلف قائد حلقة المناقشة عن المحاضر فى عدة نواحى . فالمحاضر يختار على اساس وفرة معلوماته ، وقدرته على الشرح والتعبير وتقديم موضوعه فى قالب جذاب ، بينما يختار قائد الحلقة على أساس قدرته على مساعدة الحاضرين على عرض آرائهم وقدرته على توزيع حق الكلام وتوجيه المناقشة وتلخيص الاراء التى يعرضها الحاضرون . أى أن المحاضر يتكلم وقائد الحلقة يشجع الحاضرين على الكلام بينما ينصت هو فى اغلب الوقت . ولهذا السبب ، اذا كان هناك خبراء متحدثون فى حلقة المناقشة — كما هو الحال فى المناظرة أو الندوة — فمن الواجب اختيار قائد الحلقة من غير هؤلاء الخبراء .

٣ — **البحث الفردى** : وتمتاز هذه الطريقة بايجابية الدارس الكاملة، فهو الذى يقوم ببحث الموضوع واعداده ثم القائه على زملائه الدارسين واجابة استفساراتهم أى أن مسئولية التعليم تلقى على الدارس بشكل يكاد يكون كاملا .

وتمتاز هذه الطريقة على غيرها من طرق تثقيف الكبار بانها تعطى الدارس فرصة التعمق فى البحث والتعرف على المراجع والتأكد من فهمه لجوانب الموضوع المختلفة حتى يمكنه أن يجابه زملاءه الدارسين وأن يناقشهم ويجيب على أسئلتهم .

وينحصر دور الاخصائى فى هذه العملية فى توجيه الشخص القائم بالبحث وارشاده الى مصادر المعرفة سواء كانت زيارات أو مقابلات لخبراء أو مراجع مكتبية .

الوسائل المعينة : وسواء كان التثقيف عن طريق المحاضرة أو المناقشة فانه يحسن الاستعانة ببعض الوسائل المعينة كالسبورة ، والخرائط ، والنماذج ، والافلام السينمائية أو الافلام الثابتة .

مصادر المعرفة فى المجتمع : وبالاضافة الى النشاط التثقيفى الذى يوجهه ويشرف عليه المشرف بالتعاون مع اللجنة الخاصة بذلك ، فان هناك مصادر أخرى للتثقيف فى المجتمع مثل دور الكتب ووحدات الثقافة المتنقلة ، ومؤسسات الثقافة الحرة ، والمتاحف ، والمعارض ، ومكاتب الاستعلامات ، وكثيرا ما تبقى هذه المصادر أو بعضها دون استخدام كامل وخاصة فى المجتمعات المحلية . ومن واجب الاخصائى ولجنته أن يتدارسوا وسائل تعريف الاهالى بهذه المصادر وتشجيعهم على استخدامها عن طريق الاعلان عنها وتنظيم الزيارات لها ودعوة المسئولين عنها للتحدث للمواطنين ، الى غير ذلك من وسائل الدعوة والترغيب .

الجزء الرابع

القيادات فى تنمية المجتمع

- القيادات فى المجتمع الريفى ..
- دور مشرف التنمية فى المجتمع الريفى ..
- تدريب قيادات المجتمع الريفى ..

القيادات فى تنمية المجتمع

القيــادات فى المجتمع الريفى :

من الممكن تقسيم القادة المساهمين فى عمليات تنمية المجتمـع الى ثلاثة فئات رئيسية :

١ ـ قيادات مهنية متخصصة مثل المشرف الزراعى والمثقف الصحى والمدرس .

٢ ـ قيــادات مهنية عامة مثل المختصيين فى تنمية المجتمع والتنمية الريفية .

٣ ـ قيادات تطوعية اهلية من المواطنين فى المجتمع المحلى .

(أ) القيادات المهنية المتخصصة : تقـوم هـذه الفئة بخدمات متخصصة فى قطاعات الاصلاح المختلفة مثل الزراعة والصناعة والصحة والتعليم . ويدخل هؤلاء الى المجتمع وفى ذهن كل منهم مجموعـة من المشروعات أو الخدمات المحددة عليهم أن يقنعوا المواطنين بأهميتهـا ، فعلى سبيل المثال يقـوم المشرف الزراعى باقنـاع الفلاحين باهميـة استخدام البذور المحسنة والاسمدة العضوية ، ويقـوم المثقف الصحى باقناع الفلاحين بأهمية التبرز فى المراحيض وعدم الاستحمام فى الترعة، ويقدم مشرف الصناعة باقناع القرويين بأهميـة الاسهام فى مشروعات صناعية صغيرة مثل صناعة النسيج والسجاد وهلم جرا .

(ب) القيادات المهنية العامة (مشرفوا التنمية) : تقوم هـذه الفئة بمتابعة اهداف تنمية المجتمع التى سبق الاشارة اليها ، سواء كانت اهداف تخطيطية أو تنسيقية أو تدعيمية أو غير ذلك ، اى ان هذه الفئة من القادة ليست مسئولة عن خدمة مباشره بعينها تعليمة كانت او صحية او اقتصادية ، ولكنها مسئولة عن توفير الجو الملائم حتى تقوم كل هذه الخدمات بأكبر قدر من الكفاية وتحت رعاية المجتمع وفى احضانه .

هذه الفئة ـ فئة مشرفى التنمية ـ تدخل المجتمع دون أن يكون لديها مشروعات محددة ينتظر منهم تنفيذها كما هو الحـال فى الفئة الاولى ـ

افئة القيادات المتخصصة . تدخل هذه الفئة وكل ما لديها هو طريقة للعمل مع المواطنين ، وكل أملها هو ايجاد جو مناسب لتعـاون المواطنين مع الهيئات الحكومية ـ وتعاون الهيئات الحكومية فيما بينها ـ لوضع خطة شاملة ومتزنة لاصلاح حال المجتمع ، ثم تنفيذ هذه الخطة بأكبر قدر من الكفاية . أي ان هذ الفئة من القادة لا تتخصص فى العـادة فى مجال من المجالات التقليدية ، لكنها تتخصص فى البحث والتخطيط والادارة وتثقيف الكبار ... الخ اى أنها تتخصص فيما أطلقنا عليه هنا اسم « تنمية المجتمع الريفى » .

ولا يعنى هذا ان الجهل بمجالات الاصلاح الريفى هو أحد مواصفات هذه الفئة أو احد مصوغات التعيين فى وظائف مشرفى التنميـة الريفية ، الواقع انه لن يمكن لمشرف التنمية العمل فى القرى بنجاح الا اذا كان لديه قدر من العلم بالزراعة والصحة والتعليم ... الخ يمكنه من التعاون مع الفلاحين والمهنيين فى كل مجالات الاصلاح بقـدر مناسب من الدراية والفهم .

(ج) **القيادات التطوعية** : تمثل هذه الفئة من القـادة جماعـة المستفيدين من الخدمات أى المواطنين عامة ، فهى التى تعبر عن وجهة نظر الناس عند رسم الخطة ، وهى التى تدعو المواطنين الى التعـاون فيما بينهم للقيام ببعض المشروعات ، وهى التى تنقـل رأى المستفيدين من الخدمات الى المسئولين فى الحكومة فتمهد الطريق لعمل أفيد وأصلح .. هذه الفئة اذا ليست مهنية فى جانب من جوانب التنميـة ، ولكنها تلعب دورا أساسيا وهاما للغاية لكونها همزة الوصـل بين المواطنين والحكومة ولنفوذها بين الناس .

مما سبق نرى انه لا بد من وجود ثلاثة انواع اساسية من القيادات لقيام برنامج تنمية متكامل : قيادات مهنية متخصصة ، وقيادات مهنية عامة ، وقيادات تطوعية . هذه القيادات لا بد من أن تعمل معا كفريق والا انعدمت الفرصة لقيام تنمية شاملة ومتزنة . ولكى يتم هذا لا بد من اعداد جميع هذه القيادات بطريقة تؤدى الى قيام تعاون مثمر بينهم فيرى كل منهم دور زميله ويقتنع به بل ويتحمس له كما يعرف الوسيلة التى تمكنه من الوصول الى هذا التعاون وتدعيمه وتعميقه وتوسيع مجاله .

ويمتاز مشرف التنمية عن القائد المتطوع ، بالمعلومات والمهارات والاتجاهات التى اكتسبها أثناء تدريبه على عمليات التنمية وأثناء قيامه بمجهودات مماثلة فى مجتمعات اخرى . فيمتاز مثلا بمعلومات عن سيكلوجية الافراد والجماعات والجماهير ، وعن كيفية التأثير فى هؤلاء ومساعدتهم على النمو والتكيف ، وكذلك معلوماته عن النظم الاجتماعية والوان الخدمات والادارة والقيادة وطرق التسجيل والتتبع والتقويم .. الخ » ثم هو يمتاز ايضا بمهارته فى اكتشاف الاحتياجات والموارد وتوجيه الرأى العام وتشجيع المواطنين على الاشتراك فى المشروعات وادارة المناقشات وتدريب القادة .. الخ كما يمتاز أيضا باتجاهاته المهنية كالقدرة على التحكم فى الشعور ، والفصل بين مشكلاته الخاصة وعمله فى المجتمع ، والاحتفاظ بسرية مشكلات المواطنين الخاصة .. الخ .

ويؤدى هذا الى اختلافات جوهرية فى طريقة عمل كل منهما فى المجتمع ، ومن أمثلة هذه الاختلافات ما يلى :

١ — يهدف المشرف من عمله الى تحقيق تغيرات فى البيئة وفى القائمين بالنشاط أيضا . بينما يهدف القائد النابع من المجتمع عادة الى تحقيق تغيرات فى البيئة فقط .

٢ — يتصرف المشرف بطريقة مهنية فى المجتمع ، فهو يعمل مثلا على مساعدة الاخرين على اشباع حاجاتهم النفسية أولا ، تاركا حاجاته النفسية الخاصة ليشبعها فى مواقف أخرى خارج المجتمع ، بينما يعمل المتطوع على اشباع حاجاته النفسية الخاصة أثناء مزاولته لعملية الاصلاح فى مجتمعه .

٣ — يعى المشرف أهم ما يحدث فى المجتمع وجماعاته من تيارات وخلافات وصداقات ، ويدرك أهمية هذا فى عمليات التنمية ، بعكس القائد المتطوع الذى لا يدرك عادة تأثير هذه التيارات فى نجاح أو فشل مشروعاته .

٤ — يتمكن المشرف من الانتفاع — أكثر من غيره — بالخبرات التى يمر بها فى المجتمع مما يؤدى الى نموه فى المهنة .

٥ — يدخل مشرف التنمية المجتمع ممثلا لهيئة خارجية (الحكومة مثلا) مما يضفى على قيادته لونا معينا يجعلها تختلف اختلافا بينا عن القيادة التطوعية .

كل هذا ، يجعلنا ننظر للقيادة المهنية نظرة مختلفة عن القيادة التطوعية .

السلوك المهنى للقيادات المهنية : اشرنا سابقا الى ان المترف يتصرف بطريقة مهنية ، فما معنى هذا المفهوم ؟

من الممكن تعريف السلوك المهنى بانه ذلك السلوك الواعى والمبنى على الشعور بالمسئولية الذى يتبعه شخص تدرب على مهنة معينة أثناء تأديته لعمله . ولكى يتضح هذا التعريف سوف نحدد فيما يلى بعض ما يجب أن يتبعه مشرف التنمية ليكون سلوكه مهنيا :

١ — يجب أن يكون مظهر المشرف محترما ومقبولا ومناسبا للمقام، ويدخل فى ذلك الملبس وطريقة الكلام ، وشكل مكتب العمل .. الخ ،

٢ — يجب أن يكون المشرف شريفا وواضحا فى تصرفاته ، فلا يساهم فى نقل الاشاعات أو يشترك فى قضايا شائكة غير مشرفة أو ما شابه ذلك،

٣ — يجب ان يحتفظ المشرف بمشكلاته الخاصة لنفسه فلا يتركها تؤثر فى علاقاته المهنية فى العمل ،

٤ — يجب الا يشرك المشرف الاهالى فى أسراره الخاصة ،

٥ — يجب الا يستخدم المشرف علاقاته المهنية فى المجتمع للحصول على ميزات خاصة ،

٦ — يجب الا يستخدم المشرف المواقف الاجتماعية فى عمله للدعاية لنفسه ،

٧ — يهتم الاهالى عادة بالمشرف ويتمدحونه كثيرا ، ويجب الا يؤثر هذا فى تصرفه فيصيبه الغرور ،

٨ — يجب أن يعمل المشرف على تنفيذ كل اتفاق شفوى أو كتابى بينه وبين المواطنين ،

٩ — يجب أن يمتنع المشرف عن استلاف أو تسليف اى نقود أو أشياء أخرى خاصة ،

١٠ — يحسن الا يقبل المشرف الهدايا من الاهالى ، فاذا قبلها فيجب أن يردها فى أقرب وقت ممكن ،

١١ — اذا سمع المشرف أى أسرار خاصة بالافراد أو الجماعات يجب عليه ان يحتفظ بها لنفسه فلا يتكلم عنها اطلاقا ، على انه فى المواقف المهنية مع المهنيين الاخرين ، وعندما يكون الغرض المساهمة فى حل مشاكل المجتمع ، يمكن للمشرف أن يدلى بجزء أو كل معلوماته ،

١٢ — يجب على المشرف اعتبار مشكلات موظفى المكان الذى يعمل فيه أسرارا ،

١٣ — يجب أن تكون علاقة المشرف مع الاهالى وثيقة ورسمية فى نفس الوقت ، اى انها طيبة بدرجة تسمح بحسن التعامل وتساعد

المشرف على التأثير فى الاهالى ، وفى الوقت نفسه رسمية بدرجة لا تجعل المشرف يندمج نفسيا وكليا فى المشاكل فيتاثر بها بشكل يضعف من موقفه كشخص خارجى محايد له دور خاص فى عملية الاصلاح ،

١٤ — يجب أن تظل العلاقات بين المشرفين والمشرفات رسـمية فى المجتمعات المتمسكة بالتقاليد ،

١٥ — يجب أن يشترك المشرف فى الاجتماعات والمؤتمرات والنقابات المهنية وينشط فيها ،

١٦ — يجب ان يراعى المشرف نموه الشخصى فى مهنته فيتتبع الكتب والمجلات الجديدة فى ميدانه ، ويشترك بأبحاثه فيها .

دور مشرف التنمية فى المجتمع الريفى : لا يقتصر عمل مشرف التنمية على المنظمات كمجالس القرى ، بل يمتد احيـانا الى المجتمع جميعـه وجماعاته المشتغلة بالاصلاح بل والحكومة ايضـا . ويمكن تلخيص دور مشرف التنمية فى الهيئات فيما يلى :

١ — دور المشرف فى الجماعات التنظيمية (مجلس القرية مثلا) :

(أ) مساعدة المجلس فى رسم وتحديد اهدافه ،

(ب) مسـاعدة المجلس فى أعماله التخطيطية مثل :

* التعرف على حاجات المجتمع وموارده ،
* وضع سياسة عامة للاصلاح فى المجتمع ،
* ترتيب الحاجات حسب اولويتها ،
* تقسيم الخطة على مراحل زمنية ،

(جـ) مساعدة المجلس فى أعماله التنسيقية مثل :

* العمل على منع التكرار فى الخدمات ،
* العمل على منع التداخل الجغـرافى والوظيفى بين المستويات المختلفة ،
* تشجيع المشروعات التعاونية بين الجماعات الاصلاحية المختلفة،
* العمل على حل المشكلات التى قد تنشأ بين الجماعات الاصلاحية.

(د) مساعدة المجلس فى أعماله التدعيمية مثل :

* مساعدة الجماعات الاصلاحية بالمال والمشورة الفنية ،

* اكتشاف القادة وتدريبهم نظريا وعمليا ،
* تنظيم المؤتمرات ونشر المطبوعات والقيام بالمشروعات النموذجية.

(هـ) مساعدة المجلس فى نشاطه العام فى المجتمع مثل :

* اذكاء الوعى بين المواطنين لمساندة النشاط الاصلاحى بالمجتمع،
* اذكاء الوعى بين المواطنين للاهتمام بانشاء جماعات اصلاحية جديدة لمقابلة الحاجات التى لا تقابلها الجماعات الموجودة ،
* اذكاء الوعى الاقتصادى بين المواطنين بتشجيع الادخاروالاستثمار ومؤازرة مشروعات الحكومة الاقتصادية ،
* العمل على تشجيع التطوع وتنظيمه ،
* تنظيم مكاتب الاستعلامات ليتعرف المواطنون عن طريقها على المؤسسات القائمة فى المجتمع وطريقة الحصول على خدماتها ،

(و) المساعدة فى تقوية العلاقات بين ممثلى الهيئات لدى المجلس ،

(ز) مساعدة المجلس على اتباع الطرق الديمقراطية الصحيحة فى اجتماعاته .

(ح) المساعدة فى الاعمال الادارية للمجلس كاعداد التقارير الدورية وتنظيم السجلات والرد على الخطابات .. الخ .

٢ — دور المشرف فى الجماعات الاصلاحية فى المجتمع :

(أ) مساعدة الجماعات الاصلاحية فى تحديد أهدافها ،
(ب) مساعدة الجماعات الاصلاحية فى دراسة المشكلة أو المشكلات التى تهمها ، والتعرف على موارد المجتمع التى يمكن ان تعينها فى حل تلك المشكلة او المشكلات ،
(جـ) مساعدة الجماعات الاصلاحية فى رسم سياستها وتحديد خطتها ،
(د) مساعدة الجماعات الاصلاحية على تفهم دور المجالس ودعوتهم الى مساندتها والتعاون معها ،
(هـ) مساعدة الجماعات الاصلاحية على حل مشكلاتها اثناء التنفيذ ،
(و) مساعدة الجماعات الاصلاحية على تقويم مجهوداتها .

٣ ـ دور المشرف مع الهيئات الحكومية :

(أ) مساعدة المواطنين على فهم دور الحكومة فى الاصلاح وتوضيح العلاقة بين دور الاهالى ودور الحكومة ،
(ب) مساعدة المواطنين على ايجاد طريقة منظمة وسهلة لرفع اقتراحاتهم واعتراضاتهم الى الجهات المختصة ،
(جـ) مساعدة المواطنين على تفهم وتقدير مجهودات الحكومة فى الاصلاح ،
(د) مساعدة المواطنين على الاهتمام بمساعدة الحكومة فى مشروعاتها المحلية ،
(هـ) مساعدة المواطنين على الاستفادة من مؤسسات الخدمة الحكومية الموجودة فى المنطقة بطريقة أكثر كفاية ،
(و) مساعدة الهيئات الحكومية على فهم وتقدير المجهودات الاهلية المبذولة ،
(ز) مساعدة الهيئات الحكومية على تحديد واختيار الهيئات الاهلية المستحقة للاعانات ،
(ح) توفير الجو الملائم واللازم لقيام تعاون بين الهيئات الحكومية المشتغلة بالتنمية الريفية .

تدريب قيادات المجتمع الريفى :

تختلف أهداف التدريب وطريقته باختلاف نوع القيادة ومستواها، فتدريب المرشد الزراعى يختلف طبعا عن تدريب المشرف الصحى كما يختلف عن تدريب مشرف التنمية وان تشابهوا عند التدرب على كيفية احداث تغيير فى المجتمع القروى . وتدريب القائد المهنى ايما كانت هويته تختلف عن تدريب القائد المتطوع لا من حيث نوع المادة وطول فترة الاعداد فحسب ولكن من حيث طريقة الاعداد أيضا كما أن تدريب مشرف زاول المهنة لعدة سنوات يختلف كما ونوعا وطريقة عن تدريب مشرف حديث التخرج .

من هنا كانت صعوبة التعميم . على أنه مهما كان نوع القائد فانه من المهم ان يتناول اعداده ثلاثة جوانب أساسية هى المعلومات والمهارات والاتجاهات اللازمة لتكوين القائد الناجح ، ومثال ذلك ما يلى :

١ ــ المعلومات :

(أ) التخصص فى المادة التى سوف يتعامل معها أثناء قيادته ،
(ب) فهم الجهاز الذى سوف يعمل فيه ،
(جـ) الالمام بعمليات التنمية الاخرى المشابهة فى مصر والخارج ،
(د) معرفة أسس السلوك الانسانى ــ الفردى والجماعى والمجتمعى .
ــ ودوافعه والعوامل التى تؤثر فيه ،
(هـ) معرفة أسس الادارة والاشراف ،
(و) معرفة مبادىء وأساليب العمل مع الناس لاحداث تغيير فيهم ،
(ز) معرفة اسس البحث العلمى والتقويم .

٢ ــ المهارات :

(أ) مهارات فى تكوين علاقات منتجة ،
(ب) مهارات لرفع الروح المعنوية مع العاملين معه ،
(جـ) مهارات فى التدريب ،
(د) مهارات فى الادارة ،
(هـ) مهارات فى تنظيم الاجتماعات وادارة حلقات المناقشة ،
(و) مهارات فى التعبير والتحكم فى الكلمة ،
(ز) مهارات فى التسجيل والبحث والتقويم .

٣ ــ الاتجاهات :

(أ) الايمان بالمهمة التى يقوم بها ،
(ب) الايمان بقدرة الاخرين على التفكير والعمل المنتج وتحمل المسئوليات والقيادة ،
(جـ) احترام آراء الغير والرغبة فى التعلم منهم ،
(د) القدرة على التفكير الواقعى الموضوعى ،
(هـ) القدرة على التحكم فى النزعات الشخصية ،
(و) الرغبة فى النمو المهنى والتعلم .

هذه المعلومات والمهارات والاتجاهات الاساسية هى القاعدة التى يبنى عليها أى تدريب للقادة . فالمعلومات تكتسب اساسا عن طريق

الدراسات النظرية والقراءة والبحث المكتبىوالزيارات ، والمهارات تكتسب عن طريق التدريب العملى والميدانى ، والاتجاهات تكتسب عن طـريق الجو العام المتوفر أثناء التدريب وعن طريق اسلوب التدريب نفسه .

التدريب الفريقى : أشرنا الى أهمية العمل الفريقى وعلاقته بالتنمية الشاملة ، ومن رأى الكاتب أن العمل الفريقى يمكن تدعيمـه عن طريق التدريب الفريقى أى تدريب جميع انواع القادة ـ سواء كانوا مهنيين أو متطوعين ـ فى مكان واحد وتحت سقف واحد . وليس القصد من هذا هو تدريب الزراعيين مع الاطباء مع المدرسين فى فصل واحد لكىيصبحوا زراعيين واطباء ومدرسين ، ولكن القصد هو اعداد هؤلاء جميعا ، بعد تخرجهم من دراساتهم المتخصصة ، على العمل الفريقى فى فصول للتنمية الريفية .

يبدأ هذا النوع من التدريب بان يعرض كل مختص (زراعة ـ طب ـ تعليم ـ تربية حيوان ـ تعاون ـ ادارة محلية ـ شـباب ـ شئون اجتماعية الخ) بيان بما يمكنه أن يقوم به فى التنمية الريفية من ناحيـة تخصصه ، ثم يبدأ الجميع فى مناقشة كل بيان يلقى ، وبالطبع تقـوم فى هذه المرحلة الاولى مناقشات حامية بل مشاحنات حـول التخصصات وتوزيع المسئوليات ومهارات كل فرد من الحاضرين ، الا انه من الملاحظ أن هذه الفترة ، التى تستغرق عدة أسابيع فى العادة ، تنتهى بأن يتفق الجميع على أن هناك مجالات يتضح فيها التخصص ومجالات اخرى يكثر فيها التداخل ، انه يمكن ـ فى كلا الحالين ـ قيام تعاون بين التخصصات المختلفة لتدعيم برامج التنمية الريفية .

الجزء الخامس

الخدمات الريفية فى مصر

- تطور الخدمات الريفية
- دور مؤسسة الخدمات فى التغيير الاجتماعى

تطور الخدمات الريفية

تأثرت برامج الخدمات الريفية بسياسة الدول وظروفها الاجتماعة والاقتصادية الى درجة كبيرة . ويمكننا ان نلاحظ ذلك بتتبع تطور الخدمات الريفية خلال القرن الاخير .

الفترة الاولى ١٨٨٢ – ١٩٢٣ :

فى هذه الفترة كانت البلاد تحت الحكم البريطانى المباشر . وكان الاستعمار البريطانى بطبيعة الحال يسعى الى استغلال موارد البلاد لصالحه بأكثر كفاءة منتجة . أى أن نظرته الى أى برامج ومشروعات تقدم للبلاد انما تقدم لتأثيرها على زيادة الانتاج بأقل التكاليف ، ولا تقدم لصالح الافراد أو الشعب . ولما كانت الموارد الاولية التى سعى اليها الاستعمار هو الانتاج الزراعى والقطن على وجه الخصوص فقد كان الريف هو مجال الاستغلال الاول الذى يستهدفه الاستعمار البريطانى . وفى ضوء هذه النظرة يمكننا ان نتبين أنواع البرامج والخدمات التى قدمت للريف فى هذه الفترة .

ففى ميدان التعليم مثلا ، كانت الحاجة الاستغلالية تتطلب عددا قليلا من الفنيين الزراعيين وعددا أكبر من الكتبة الذين يقيدون البيانات والمخزونات ، واما الغالبية من العمال الزراعيين فلم يكن هناك حاجة الى تعليمهم من وجهة نظر السلطة الحاكمة .

لذلك فقد كانت هناك مدرسة الزراعة السلطانية (العليا فيما بعد والتى حولت الى كلية الزراعة بجامعة القاهرة حاليا) ويتخرج منها عدد قليل من الفنيين الزراعيين ، أما الفئة الثانية من الكتبة فقد كان للتعليم الاولى أو الكتاتيب العامة مجال فى تدريبهم ولعلنا نذكر أن التعليم كان يدور حول الكلمات التى يحتاج اليها هؤلاء الكتبة فى المزارع مثل زرع وحصد ووزن وغير ذلك .

اما الغالبية من أبناء الشعب ممن يعملون فى العمل الزراعى فلم يكن لهم أى نصيب أو فرصة للتعليم .

وفى ميدان الصحة مثلا كان الخطر الاكبر على الانتاج الزراعى يأتى

من ناحية انتشار الامراض الوبائية التى تؤثر على القوة العاملة فىالانتاج الزراعى . لذلك فقد اهتم المسئولون فى هذا الوقت بمكافحة الامراض الوبائية وتنظيم عملية الحجر الصحى ومكاتب ضباط الصحة ولم يكن هناك اى اهتمام بتحسين البيئة الصحية أو تحسين فرص العلاج الصحى للامراض الفردية لعدم انعكاس أثرها على الانتاج انعكاسا مباشرا حيث تتوفر الايدى العاملة الكثيرة التى تغطى اى ضعف فى الصحة الشخصية للافراد

واعتمد النظام الادارى فى القرية على نظام العمد رخيص التكاليف قوى الفاعلية فيما يختص بالمحافظة على الامن والممتلكات ، العاجز عن القيام بأى دور فعال فى نواحى رفع المستوى المعيشى بالريف .

اما الاهتمام الاكبر فى برامج الخدمات الزراعية فقد اتجه الى قسم القطن بوزارة الزراعة الذى دعم بالاعتمادت المالية والفنيين فامكنهتقديم الاصناف الممتازة من القطن ، كذلك اهتمت الحكومة بمشروعات الرى والصرف التى تنعكس آثارها المباشرة على الانتاج الزراعى .

وهكذا نرى أن الخدمات العامة التى قدمت للريف فى هذه الفترة اقتصرت على مجرد ادنى الخدمات التى تنعكس أثارها على زيادة كفاءة الاستغلال الزراعى فى الريف ، والشىء الذى كان هو الهدف الاول بل الهدف الوحيد لهذه الخدمات .

الفترة الثانية ١٩٢٣ ـ ١٩٣٨ :

وهى الفترة التى تبدأ بعد تصريح ٢٨ فبراير المعروف الذى نالت مصر من ورائه استقلالا جزئيا وانتقل فيه الحكم من تحت الحكم الانجليزى المباشر الى الحكم البرلمانى الملكى .

وتتصف البرامج والخدمات الريفية فى هذا الوقت بصفة غالبة هى كثرة الوعود والاقوال وقلة التنفيذ والافعال .

فقد كانت مقاليد الحكم فى هذا الوقت تتأثر بعاملين هامين ، أولهما النفوذ البريطانى على الحكم والثانى النفوذ الاقطاعى الداخلى على الحكم . وكان البرلمان والاحزاب المتنازعة على مقاعده تنشر الوعود باصلاحالحال

فى الريف وما تزمع القيام به من برامج وخدمات بل وكانت خطابات العرش التى تلقى فى مبدأ كل دورة برلمانية مليئة بالوعود الكثيرة فى هذا الشـــأن .

الا أن هذه الوعود لم تكن تصل الى حد التنفيذ فى اغلب الاحيان وان بدأ تنفيذها فلا يلبث هذا التنفيذ ان يصطدم بالعقبات والصعوبات التى تحد من انتشاره ومن وصوله الى الاهداف المعلن عنها .

ولعل من اوضح الامثلة فى هذا السبيل موضوع القضاء على الامية والبدء فى الالزام فى التعليم . وشتان بين الوعود التى قيلت فى البرلمان فى هذا الشأن وبين الواقع فى التنفيذ الذى سبق أن أشرنا اليه عنـــد حديثنا عن التعليم فى الريف .

على أن هناك عدة عوامل هامة برزت فى هذه المرحلة ومهدتللمراحل التالية ومن اهم هذه العوامل ما يأتى :

١ ـ انشاء الجامعة الاهلية وما ترتب على انشائها من تخرج أفواج من المتعلمين الذى تكون من بينهم جماعات عديدة اهتمت باصلاح الاحوال الاجتماعية فى البلاد مثل الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية وجماعة الرواد ورابطة الاصلاح الاجتماعي وبذلك بدأت جماعات من المثقفين المستنيرين تتولى قيادة الرأى العام فى الاهتمام بالاحوال الاجتماعيـة والمعيشية المنخفضة بين أبناء الشعب .

٢ ـ دخول بعض المتعلمين المصريين الى ميدان الصحافة المصريةالتى كانت قد انعزلت لفترة من الوقت عن الشعب حيث كان يتولاها عدد من المهاجرين الذين كانوا لا يتعرضون فى مقالاتهم اطلاقا لاية من المشـكلات الاجتماعية التى كانت ترزح البلاد تحتها . وبذلك عادت الصحافة الى دورها القيادى بين أبناء الشعب .

٣ ـ معاهدة ١٩٣٦ التى حدت من النفوذ البريطانى الى حد ما وسمحت لانتشار الافكار والآراء الجديدة وتبادلها بين أفراد المجتمع .

٤ ـ من اهم العوامل الايجابية التى أثرت على الخدمات الريفيـة بوجه خاص هو اتجاه مناقشات الجمعية العموميـة بالجمعية المصرية

للدراسات الاجتماعية وهى (جمعية كانت تضم مجموعة من المتعلمين فى مختلف الاختصاصات والمهن) بأن يتسع عمل الجمعية الى الريف ، وتشكلت لجنة للريف من بين أعضائها للعمل على تحقيق رغبة الجمعية العمومية فى هذا الشأن .

الفترة الثالثة ١٩٣٨ - ١٩٤٦ :

تميزت هذه الفترة باندفاع الوزارات المختلفة وتنافسها فى تقديم الخدمات للريف دون ما تنسيق او تخطيط مشترك . وكان الدافع الاساسى لاندفاع الدولة فى تقديم هذه الخدمات هو الاستجابة للرأى العام الذى كان ينادى باصلاح الاحوال فى الريف .

فبعد أن كانت المراكز الاجتماعية قد بدأت فكرتها عن طريق الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ؛ انشئت وزارة الشئون الاجتماعية عام ١٩٣٩ وكان انشاؤها فى وزارة على ماهر (وهو نفسه رئيس الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية) وانتقل بانشائها عدد من رجال الجمعية المذكورة الى مناصب مسئولة فى هذه الوزارة نذكر منهم المرحوم الدكتور عبد المنعم رياض والمرحوم الدكتور عبد الواحد الوكيل والدكتور أحمد حسين . وقد بدأت هذه الوزارة على الفور فى تكوين ادارة للفلاح برئاسة الدكتور أحمد حسين التى أخذت على عاتقها انشاء المراكز الاجتماعية . فأنشىء منها خمسة مراكز عام ١٩٤١ وستة مراكز عام ١٩٤٢ . ثم توقف الاتساع فى نشر هذه المراكز بقية هذه الفترة لعدم توفر الاعتمادات المالية .

وفى عام ١٩٤٢ تولى المرحوم الدكتور عبد الواحد الوكيل منصب وزير الصحة فاستصدر قانون الصحة القروية ، الذى كان أهم ما يميزه هو تعهد الدولة بموجبه بتخصيص مبلغ معين من المال فى ميزانيتها لبرامج تحسين الصحة القروية .وفى مقدمتها انشاء المجموعات الصحية وعمليات مياه الشرب الصغرى والكبرى فى الريف .

وفى عام ١٩٤٤ بدأت وزارة الزراعة فى انشاء الوحدات الزراعية فى الريف .

وفى عام ١٩٤٦ دخلت وزارة التجارة والصناعة الى التسابق فأنشأت ادارة الصناعات الصغرى التى أخذت على عاتقها انشاء مراكز التدريب الصناعى فى الريف والحضر .

وكانت وزارة التربية والتعليم (المعارف فى هذا الوقت) قد بدأت هى الاخرى فى انشاء نوع جديد من المدارس سمى بالمدارس الريفية .

هذا بجانب الجمعيات التعاونية التى كانت قد حولت تبعيتها من وزارة الزراعة الى وزارة الشئون الاجتماعية الجديدة .

وهكذا نرى أن الخدمات الريفية قد تنوعت بشكل واسع فأصبح لدينا مراكز اجتماعية وجمعيات اصلاح ريفى وجمعيات تعاونية ومجموعات صحية ووحدات زراعية ومدارس الزامية وأولية وريفية ومراكز تدريب صناعى ريفى . ومعظم هذه الخدمات ظهرت خلال فترة لا تتعدى السبع سنوات .

الا أنه بالرغم من التعدد الظاهر لهذه البرامج فقد لوحظ على الخدمات فى هذه الفترة ما يأتى :

١ — عدم التنسيق بين هذه الخدمات مما أدى الى الازدواج فى الخدمات وتكرارها ، الشيء الذى أدى بعد مضى فترة قصيرة الى تحول التنافس فيما بينها الى صراع ظاهر وعدم تعاون بين القائمين على امورها .

٢ — لم تتمكن الميزانية بطبيعة الحال من أن توفر لكل من هذه البرامج المتعددة الاعتمادات المالية اللازمة لانتشارها ، الشيء الذى أدى الى أن اقتصرت كل من هذه البرامج على انشاء عدد قليل من الوحدات ووقوف انتشار الخدمات عند هذا العدد القليل .

٣ — ضياع المسئولية بين هذه الخدمات المتنوعة المتصارعة .

وهكذا نرى أن التنوع فى هذه الخدمات والتعدد كان من ناحية انواعها ولم يكن من ناحية انتشارها حتى لقد وصفها احد وزراءالشئون الاجتماعية بأنها مشروعات عينات أى أن كل برنامج كان يكتفى ويقتصر على مجرد عينة صغيرة من مشروعه . وقد ادى ذلك الى أن معظم المناطق الريفية كانت محرومة من أى خدمات فى الوقت الذى نجد فيه بعض القرى مليء بهذه الهيئات المتنافسة او المتصارعة .

الفترة الرابعة ١٩٤٦ — ١٩٥٢

بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانتشار مبادىء الحرية وحقوق

الانسان فى كافة انحاء العالم ومن ضمنه مجتمعنا ، كان الناس يطالبون بالجدية فى اصلاح الاحوال التى أصبحت لا يمكن قبولها مع الوعى المتزايد بين أبناء الشعب .

وكان على رأس الوزراء وقتئذ المرحوم اسماعيل صدقى الذى كان يخشى انحراف هذا الوعى الى اتجاهات سياسية غير مرغوبة ما لم تقم الحكومة بدور واضح صريح فى تحسين أحوال الشعب . لذلك فقد شكل لجنة عرفت فى مبدأ تشكيلها باسم اللجنة العليا لمكافحة الفقر والجهل والمرض ثم عدلت تسميتها الى اللجنة العليا لشئون العمال والفلاحين . وكانت هذه اللجنة تتكون برئاسة رئيس الوزراء نفسه وعضوية وزراء وزارات الخدمات كالشئون الاجتماعية والصحة والمعارف وغيرها . وكان سكرتير هذه اللجنة هو الدكتور أحمد حسين مدير مصلحة الفلاح فى هذا الوقت .

ويهمنا من هذه اللجنة أعمالها فى الجانب الريفى . فقد قامت اللجنة المذكورة بزيادة انواع البرامج المختلفة الموجودة بالريف ثم انتهت الى وضع برنامج تنسيقى بين هذه الخدمات تنظم علاقاتها وتضع خطة تعميمها فى جميع انحاء الريف خلال ثمانى سنوات . وتتلخص هذه الخطة التنسيقية فى الآتى :

١ — ينشأ مركز اجتماعى فى كل قرية أو أكثر من القرى المتقاربة تعداد سكانها حوالى ١٠٫٠٠٠ نسمة . ويكون المركز الاجتماعى هو محور الخطة التنسيقية . ويكون من ضمن خدمات كل مركز اجتماعى عيادة خارجية كما كان من قبل الا انه لا يعين للمركز الاجتماعى طبيب خاص به .

٢ — ينشأ فى كل منطقة من مناطق أعمال المركز الاجتماعى مدرسة ريفية ومركزا للتدريب الصناعى الريفى .

٣ — ينشأ بين كل ثلاثة مراكز اجتماعية (اى فى منطقة سكانها حوالى ٣٠٫٠٠٠ نسمة) مجموعة صحية يعمل بها طبيبان وبها سيارة . ويكون فى المجمعة الصحية قسم داخلى للمرضى تحول اليه الحالات التى تحتاج الى علاج داخلى من العيادات الخارجية بالمراكز الاجتماعية المحيطة به .

على أن يتولى العمل بهذه العيادات الخارجية بالمراكز الاجتماعية احد اطباء المجموعة الصحية الذى يمر على هذه العيادات الخارجية فى مواعيد محددة بحيث ينال كل عيادة منها يومين على الاقل اسبوعيا .

٥ ــ تنشأ فى كل منطقة مساحتها حوالى ٥٠٫٠٠٠ فدان وحدة زراعة تتولى التجارب الزراعية وعملية توفير البذور المنتقاة وتوفير جميع الخدمات الزراعية اللازمة كما أن بها وحدة بيطرية . على أن تكون فى خدمة المراكز الاجتماعية الموجودة بالمنطقة . اى أن المركز الاجتماعى هو الذى يمثل حلقة الاتصال بين الاهالى وبين الوحدة الزراعية ؛ بل وبين الاهالى وبين كافة مؤسسات الخدمات الاخرى الموجودة بالمنطقة

هذا وقد قررت اللجنة العليا لشئون العمال والفلاحين أن يعمم هذا البرنامج فى جميع أنحاء الريف خلال ثمانية سنوات ، وعلى أن يعمم فى أحد المراكز الادارية خلال العام الاول للبرنامج حتى يكون صورة كاملة لما يكون عليه الريف المصرى عند نهاية مدة البرنامج . وقد اختير مركز منوف بمديرية المنوفية بوصفه أكثر المراكز الادارية فى كثافته السكانية ليكون المكان الذى يتم فيه هذا التصميم فى السنة الاولى للبرنامج . وقد تم التعميم فيه فعلا فأنشئت جميع المراكز الاجتماعية والمجموعات الصحية والوحدات الزراعية اللازمة كما اختيرت قرية سرس الليان لتكون مقر الرئاسة المشرفة على المشروع من قبل جميع وزارات الخدمات.

وقد بدأ التوسع منذ سنة ١٩٤٦ فى نشر الخدمات المختلفة طبقا للبرنامج الموضوع الا ان التوسع فى البرنامج قابل صعوبات جمة أدت الى توقفه نلخصها فى الآتى :

(أ) سقوط الوزارة التى تبنت المشروع مما ادى الى تنصل كل وزارة من الوزارات المعنية من التزاماتها المنصوص عليها فى المشروع . ومن أوضح الامثلة على ذلك أنه بعد أن الغت وزارة الشئون الاجتماعية وظيفة الطبيب اعتمادا على أن وزارة الصحة ستتولى مد العيادات الخارجية بالمراكز الاجتماعية بأطباء ، تنصلت وزارة الصحة من التزاماتها بدعوى عدم توفر الاطباء واضطرت وزارة الشئون الاجتماعية الى معالجة الحالة وحدها بمنح جمعيات المراكز الاجتماعية اعانات خاصة للاتفاق مع الاطباء المحليين أو المجاورين للعمل بعض أو كل الوقت بها .

(ب) أدى الامر الى عدم التعاون بين الوزارات فى ادارة المشروع الى حد اهمال مركز منوف الذى تمت فيه الخدمات حتى لقد بقيت المبانى الخاصة بالاشراف على المشروع فى قرية سرس الليان مهجورة حتى استعملت أخيرا مقرا للمركز الدولى للتربية الاساسية للعالم العربى .

(جـ) كان لتأثير حرب فلسطين على الميزانية أثره على عدم توفر الاعتمادات اللازمة للتوسع فى البرنامج طبقا للخطة المرسومة مما ادى الى وقوف بعض البرامج نهائيا والاستمرار فى بعضها ببطء شديد .

وقد صدر قانون الضمان الاجتماعى فى نهاية هذه الفترة عام ١٩٥٠ فكان نصا صريحا لحق الافراد العاجزين قبل المجتمع .

الفترة الخامسة ١٩٥٢ الى الوقت الحالى :

بدات الخدمات تتخذ بعد قيام الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ اتجاها وفلسفة جديدة وكان من أول الخطوات الحاسمة التى اتخذتها حكومة الثورة فى هذا السبيل قانون الاصلاح الزراعى فى سبتمبر عام ١٩٥٢ ثم كان توحيد نظم التعليم بالمرحلة الاولى فى عام ١٩٥٣ ثم كان لانشاء المجلس الدائم للتنمية الاقتصادية دور غير مباشر على سحب القوى العاطلة فى الريف ثم كان لانشاء المجلس الدائم للخدمات العامة وما نتج من مشروع الوحدات المجمعة أثره فى زيادة الخدمات فى الريف وعدالة توزيعها .

ويجب أن يذكر اهمية انشاء مؤسسة ابنية التعليم عام ١٩٥٢ الذى كان لها فضل كبير فى رفع مستوى المبانى المدرسية فى الريف على وجه الخصوص .

ولعل من أهم البرامج التى أثرت على الحالة الصحية فى الريف هو ما قامت به الثورة من مشروع تعميم المياه الصالحة للشرب فى الريف فى خلال ثلاث سنوات .

ويلاحظ عن البرامج التى قامت فى هذه الفترة الاتجاهات الآتية :

١ — التخطيط :

فالتخطيط يلعب الدور الاساسى فى برامج هذه الفترة . والتخطيط يستلزم القيام بالبحوث اللازمة والعمل على تنسيق الامكانيات وتوفيرها

للتمكن من تنفيذ الخطط المرسومة . وبذا لم تعد البرامج ذات صبغة شخصية وفق اهواء المسئولين وسرعان ما تهمل البرامج بتغيرهم كما كان الحال فى الماضى ، بل أصبحت البرامج تنفذ طبقا لخطة موضوعة فلا تتأثر بتغير القائمين على تنفيذها مما يضمن لها الاستقرار والنمو . وقد أفاد التخطيط كذلك فى التنسيق بين الخدمات والتخفيف من حدة التكرار والصراع الذى كان طابع الخدمات فى الماضى . وقد نتج عن هذا الاتجاه وضع خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى اعتمدها المؤتمر العام للاتحاد القومى عام ١٩٦٠ .

٢ — شعبية المشروعات والبرامج :

يلاحظ المتتبع لبرامج الخدمات والمشروعات التى قامت فى هذه الفترة أنها جميعا تستهدف مصلحة الغالبية من أبناء الشعب ولو أدى الامر الى ان يشعر قلة من الشعب بعدم استفادتهم منها أو بالحاق بعض الضرر بهم فالأصلاح الزراعى مثلا قد أفاد آلاف من الملاك الجدد وملايين من المستأجرين والعمال الزراعيين وأن كان قد مس ملكية عشرات من كبار الملاك .

وتوحيد نظام التعليم بالمرحلة الاولى مثلا قد أفاد جميع أبناء الشعب فى هذه المرحلة وان كان قد أثر فى مبدأ الامر على مستوى التعليم فى بعض المدارس الابتدائية القديمة وهكذا .

٣ — اللامركزية فى تنفيذ برامج الخدمات :

اتجهت التنظيمات الادارية فى وزارات الخدمات كوزارة الصحة ، والشئون الاجتماعية والعمل والشئون البلدية والقروية ، والتربية والتعليم ، والزراعة الى اعادة تنظيم جهازها التنفيذى على أساس وجود ادارات أو مراقبات أو مناطق اقليمية تمنح سلطات واسعة للبت فى المسائل المتعلقة بتنفيذ البرامج . وبذلك زالت المركزية القديمة التى كانت تؤخر البت فى المسائل حتى ترد الموافقة على كل اجراءاتها من الوزارة المركزية بالقاهرة . وقد نتج عن هذا الاتجاه اللامركزى فى الادارة الحكومية لوزارات الخدمات أن أصبحت البرامج وتنفيذها يتمشى مع الظروف الاقليمية مما يدعم فائدتها ، كما أن سرعة البت فى الامور أصبحت حقيقة واقعة ومن جهات على معرفة وثيقة بالظروف المحلية عند البت فى هذه الامور . هذا وقد تبلورت هذه اللامركزية فى عام ١٩٦٠ الى نظام متكامل للادارة المحلية .

دور مؤسسة الخدمات فى التغيير الاجتماعى

عندما تنشأ مؤسسة للخدمات فى احدى القرى مثل انشاء مستشفى أو مركز اجتماعى أو وحدة مجمعة أو اى مؤسسة اخرى ، فان مثل هذه المؤسسة تؤثر فى ثقافة المجتمع السائدة بشكل ما ، أى تحدث فيه تغييرا اجتماعيا . وهدف المؤسسة هو فى الواقع احداث تغيير اجتماعى مقصود وموجه ، ومجرد وجود هذه المؤسسة فى القرية يحدث تغييرا اجتمماعيا قد يتفق مع الهدف من انشائها وقد يحدث هذا التغيير عفوا دون توجيه محدد . ويمكن تلخيص الاثر الذى يحدثه تواجد مؤسسة خدمات فى احدى القرى فى النواحى التى سنبينها باختصار فيما بعد . ولسهولة العرض سنفترض أن هذه المؤسسة هى مستشفى لتوضيح الامثلة .

١ — حدوث تغيير اجتماعى عن طريق الايحاء والتقليد :

فمن مجرد وجود المستشفى فى القرية مثلا قد يحدث عمليات ايحاء وتقليد بين المؤسسة وموظفيها وبين الاهالى نتج عنه حدوث تغيير فى ثقافة الاهالى . فمثلا قد يعجب بعض الاهالى من الشكل المعمارى لمبنى المستشفى وانخفاض ارتفاع أسقف الغرف فيقلدونه فى مبانيهم . أو قد يرى الاهالى الستائر الرخيصة البسيطة التى تستعمل على نوافذ المستشفى فيقلدونها ويستعملونها فى تجميل منازلهم وهكذا . أو قد يرى الاهالى أحد الاشياء فيستوحون منها فكرة مخالفة الى حد ما يستعملونها فى حياتهم الخاصة دون تقليد مباشر .

ومن هذا المستوى يتضح أن مجرد تواجد مؤسسة خدمات باحدى القرى قد ينشأ عنه تغيير اجتماعى . الا أن هذا التغيير الاجتماعى ليس مقصودا من جانب المؤسسة فى أغلب الاحوال بل وربما لا يشعر القائمون بالعمل فى المؤسسة بدورهم فى حدوثه . من أجل ذلك يطالب العاملون فى مثل هذه المؤسسات بأن يكونوا دائما قدوة حسنة فى سلوكهم وتصرفاتهم ومظهرهم لانهم يكونون دائما موضع تقليد من أهالى المجتمع دون أن يشعروا .

٢ ـ حدوث تغيير اجتماعى عن طريق تقديم خدمات هامة كان المجتمع يفتقر اليها :

قبل انشاء المستشفى كان اهالى القرية يجدون صعوبة جمة فى الحصول على العلاج المطلوب لمرضاهم لاضطراهم الى دفع تكاليف مالية كبيرة للانتقال الى الجهات التى يتوفر بها مثل هذه الخدمات .

وكان غالبية الاهالى الذين لم يكن لهم الموارد المالية الكافية التى تتحمل هذه الاعباء يهملون فى علاج مرضاهم حتى يتقدم بهم المرض الى درجة يصبح من الصعب شفائه ، أو قد يلجئون الى الوصفات البلدية والسحر والشعوذة التى تكون فى متناول أيديهم وطاقتهم فى القرية .

وبعد انشاء المستشفى تبدأ المستشفى فى تقديم خدماتها سواءبعلاج المرضى أو بتطعيم الاهالى ضد الامراض ومثل هذه الخدمات ستؤثر ولاشك على الانماط السلوكية السائدةللاهالى قبل الامراض وتقل معدلات الوفيات ونسبة انتشار الامراض .

ويلاحظ عن هذا المستوى من التغيير ملاحظتين هامتين :

(ا) أن مثل هذا النوع من التغيير هو تغيير موقوت باستمرار عمل هذه المؤسسة الى حد كبير ، بحيث أن أثر التغيير يكاد يختفى فى حالة توقف المستشفى عن تقديم هذه الخدمات للمجتمع . فهو من هذه الناحية تغيير يكاد يكون سطحى لا يؤثر تأثيرا عميقا على ثقافة المجتمع والتكوين الذهنى والعقلى لافراده .

(ب) أن هذا الدور لمؤسسات الخدمات هو الدور الشائع فى أذهان غالبية القائمين على تقديم الخدمات لانه سهل محدد يمكن قياسه واحصائه بسهولة فالمستشفى تستطيع أن تذكر فى تقاريرها عدد المرضى وأنواع الامراض واحصائيات عن العلاج والادوية المنصرفة وكذلك عدد الذين تحصنوا ضد الامراض أو أعطوا حقنا بمعرفة المستشفى ... الخ . مما يسهل عرضه على الرأى العام وعلى رئاساتهم .

٣ ـ حدوث تغيير اجتماعى عن طريق تولى المؤسسة لدور قيادى تعليمى فى المجتمع :

ويعتبر هذا الدور هو أعمق واهم الادوار التى يمكن للمؤسسة أن تقوم بها لتحقق ما تستهدفه من احداث تغيير اجتماعى موجه من أفراد المجتمع الذى تعمل فيه .

ومثل ذلك فى عمل المستشفى مثلا هو قرن الخدمات التى تعطى للافراد بعملية تعليمية سليمة قائمة على اساس تفاعل اجتماعى بين موظفى المؤسسة وبين الاهالى . فمثلا بدلا من مجرد تنظيم الاهالى فى طابور لاعطائهم الحقن أو الامصال المضادة لمرض من الامراض . فان الطبيب القائم بالحقن يقوم بمجهود تعليمى آخر فى شرح أسباب هذا الحقن ؛ والكيفية التى تؤثر بها على هذا المرض وامكان اتباعه مع غيره من الامراض الاخرى ، بحيث لا يقتصر شعور الفلاح على مجرد أنه حقن بل يكون قد اكتسب خبرة ومعلومات ترفع من نوعه الآدمى وتزيد من قدرته على مواجهة مواقف اخرى . ومثل هذا الشخص قد يسعى بنفسه للحصول على التطعيم اللازم ضد الامراض حتى لو توقف عمل المؤسسة فى قريته لاقتناعه وايمانه بفائدته واهميته .

ولاشك أن هذا الدور يتطلب مجهودا اضافيا من جانب القائمين على العمل بالمؤسسة أكثر من المجهود الذى يتطلبه الدور السابق كمجرد تقديم الخدمات الملموسة . ومثل هذا المجهود عادة لايمكن تدوينه بالارقام والاحصاءات فى التقارير . وما لم يقدر هذا الدور والمجهود الذى يتطلبه من جانب الرؤساء فان القائمين بالعمل غالبا ما يتجاهلونه ولا يقومون بتأديته ، وبالتالى فهم يهملون أخطر واهم دور للمؤسسة الاجتماعية أو مؤسسة الخدمات فى التأثير الفعال على افراد المجتمع لاحداث تغيير اجتماعى فى حياتهم .

محتويات الكتاب

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧٤/٢٦١٠

دار الهنا للطباعة ت : ٧١٣٢٧

